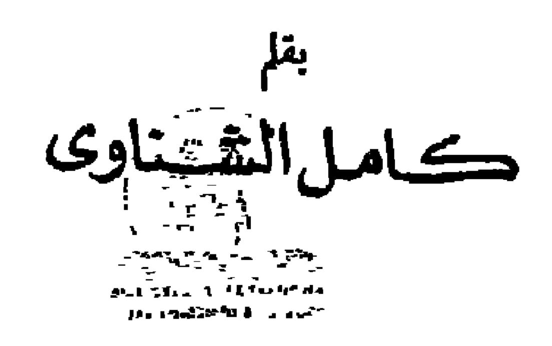
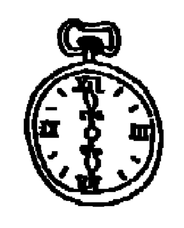

كامل الشناوى
ساعات
دار المعارف
Bibliotheca Alexandrina
0127659

ساعات





الطبعة الرابعة



فى العشرين من عمرها... هـذا مـا تـؤكده شـهادة ميلادها، ولكن ذكاءها الحاد، ورقتها العذبة، وفتنتهـا الأخـاذة تتحدى شهادة الميلاد! فهـى فى الثلاثين بثقـافتها، وعقليتهـا. وهى فى السادسة عشرة برشاقتها، ونضارتها، بـرأسها الـوديع، وجاذبيتها الضارية... بملامحها الهادئة، وأنـوثتها الصـاخبة... بصوتها الناعم كنغمة، المتهدج كمناجاة!

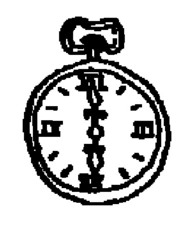
منذ عشر سنوات التقيت بها، وكانت كما هـى اليـوم... فى السادسة عشرة! إن الـزمن لا يمـر عليهـا ولـكن يلتف حولها، يعانقها فى حنان، ويمسح ما يمكن أن يعلـق بهـا مـن غبار الأيام!

وهكذا كانت، وهكذا هى إلى اليوم، وإلى غد... عقلية متحركة كالمعرفة، وملامح ثابتة كالحقيقة!

كلما رأيتها تخيلت أن الله خلقها فى هذه اللحظة...
فهى دائماً ناضرة، جديدة، متألقة. كشمس تتهيأ للإشراق!
إنها تمثال من ظلال، وأحاسيس، وأضواء، تفننت الطبيعة فى صنعه، وبعد ما دارت حوله، واطمأنت إلى روعته، أزاحت عنه الستار، لتفتن الناس بالتمثال، وبالقدرة التى صنعت التمثال!

ما لهذا التمثال الدقيق لا يكتفى بالوقوف أمام عينى...
إنه يتحرك فى مشاعرى، يهزها، ويثيرها فأهيم به، ولكنى لا أستطيع أن أوجه إليه كلمة من كلمات الغزل...

إن المؤمنين بالله يحبونه، ولكنهم لا يغازلونه... وقد أصبحت فى سن لا تسمح لى بغير الإيمان!!



تمهلى أيتها الأيام... لا تدفعينى فى طريقك بهذه السرعة المجنونة... إننى لا أجرى، ولا أمشى، ولكنى أحفر بخطواتى القبر الذى سيضمنى، بعد ما أتحول إلى رفات!



إنني لا أكره الموت، ولكني أكره أن أتولى بنفسي قتل نفسي وأضع جثماني في نعش أحمله على كتفي، وأمشي وراءه!

ما أقسى أن أكون الميت والجنازة، والخطوة... والطريق!

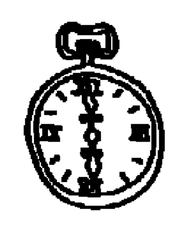
إن عامًا جديدًا بدأ يدخل حياتي... يا خجلي منه! ماذا أقدم له!.

وهل عندنا ما نقدمه لسنة تأتي، أو سنة تمضي، إلا حياتنا!

أيها الزمن... أيها اللص المولع بسرقة الآجال... ماذا صنعت بكل ما سرقت من آجال البشر؟ وماذا تريد مني، ولم يبق عندي ما يغري بالسطو والسرقة؟

ولكن كيف أمنعك يا قدري... يا سارق عمري؟

ادخل وخذ من حياتي شيئًا، ودع شيئًا. ربما جاء بعدك عام آخر.. فيجد ما يأخذه... ربما!



ظل طيلة حياته معها يلهث... كان يلهث وراءها ليلقاها، فصار يلهث هربًا منها!

وانهمرت الدموع من عينيها تحكى قصة زوجين جمع الحب بينهما ثلاث سنوات. وفجأة تحول الزوج من عاشق مشبوب العاطفة، إلى شيطان لعين.

وسألتها: كيف أصبح شيطانًا وهو الإنسان الطيب الغبى! هل هبط عليه الذكاء من السماء؟

قالت: الشياطين ليسوا أذكياء. الشياطين أشرار!

قلت: لأنهم أشرار، فهم أذكياء!

ومزقت الدهشة قسمات وجهها، وقالت فى نبرة صارخة: أأنت تقول هذا الكلام؟

وقلت: لقد أردت بما قلته لك أن أجفف دموعك.

.. فقلبى لا يحتمل أن يرى سيدة جميلة وهى تبكى!

قالت: لو كنت جميلة لما تخلى عنى!

قلت : الحق جميل... وما أكثر الذين يتخلون عنه!

قالت : الباطل الذى نحبه. خير من الحق الذى نكرهه...

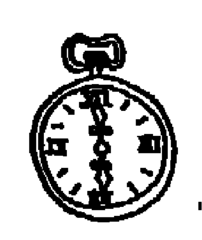
وأغمضت عينيها على دموع لم تلبث أن انحدرت على خديها، وقالت بصوت مخنوق :

منذ مات أبى، تغير كل شىء فى زوجى!

- سيدتى : إن زوجك لم يتغير لأن أباك مات، ولكن تغير لأن الحب مات!

لم أقل لها هذه الكلمات بفمى... وإنما قلتها بنظراتى.

وأكبر الظن أنها سمعتها، فقد انصرفت من زيارتى، وعندما ودعتنى قالت لى : الحق معك!



بهرتنى وهى تمشى بيننا، القوام كالسيف ممشوق ورقيق. الشعر الأشقر كخيوط الشمس لا ينسدل على جبهتها. ولكن يدنو منها ويلثمها.

العينان الزرقاوان، يلمع منهما ضوء خاطف، كشعاع تخلصت منه نجمة وهى تهرب فى طيات السحاب!

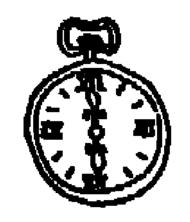
الخدان نابضان برعشة حمراء ناضرة، يفصل بينهما أنف صغير. ولكنه مهيب... كأنما يحاول بمهابته أن يمنع أحد الخدين من التهام الخد الآخر!

الفم يباهى بشفتيه المكتنزتين بلباقة... وقد بدا باستدارته، وحمرته، ورقته، أشبه بكأس مصنوعة من قبلة وابتسامة!

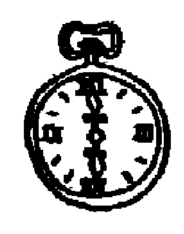
العنق الجميل يتحرك كالزهو، ويسكن كالكبرياء... والذقن حلو أنيق، تزينه غمزة مبهمة... ظننتها توقيع الله!

وعبثًا حاولت أن أركز عينى فى هذه الملامح المعننة فى الفتنة والجاذبية... فهى ناعمة ملساء، لا تكاد النظرة تصل إليها حتى تتزحلق!

لقد أشاعت فى نفسى الراحة والرجفة معًا... ولم أستطع أن أحدثها، فقد كانت الحروف، مثل نظراتى، مثل أنفاسى... تئن وتلهث:

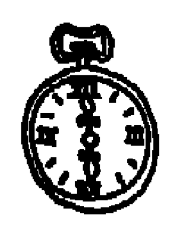


وهممت أن أكتب لها كلمة، وإذا بى أكتب إلى الله . . برقية أبثه فيها إعجابى بأجمل لوحاته !



الفن الأصيل شجاع وعنيد لأنه يستطيع وحده أن يقتحم الخلود، ويتحدى الزمن . . . والفن الزائف قد ينتفض ويزدهر يومًا، أو عامًا، ولكنه لا يلبث أن يهمد . . . ويذوى.

وهناك قاعدة قديمة تقول إن الكثرة تغلب الشجاعة . . . ويمكن تطبيق هذه القاعدة فى مجالات كثيرة، إلا مجال الفن . . . والشعر فن !



عرفتهما منذ عشر سنوات... كانا أسعد زوجين، حياتهما حب، ونشوة، وغيرة... وتطورت الغيرة عند الزوج فصارت شكًّا يكوى قلبه بالنار!! إنه لا يقوى على الظن، ولا يستطيع أن يطمئن إلى اليقين.

وأنجبا ثلاثة أطفال، أكبرهم فى الثامنة وأخذ الزوج يتعقب زوجته باتهامات لا يجرؤ على أن يفصح عنها... توهم أن لها علاقة بأحد أصدقائه، فكان يبكى فى صمت. وإذا رأته باكيًا سألته لماذا يبكى؟ فيفتح صفحة الوفيات ويشير إلى اسم من أسماء الموتى ويزعم أن صاحب هذا الاسم صديق صباه، فلا أقل من أن يذرف عليه دمعة.

وأخيرًا وجه إليها الاتهام، وغضبت، وذهبت إلى بيت أمها ولم يطق أن يفارقها أكثر من ليلة. وعاد بها إلى أولادها...

وذات يوم سألنى عن رأيى فيها.

فقلت ـ صادقًا ـ : إنها بجمالها وذكائها، وعذوبتها ذروة. . . عالية.

قال : لكل ذروة سفح!

قلت : إن سفح هذه الذروة رماله الشرف، وحصاه العفة!!

قال : ألم تسمع عنها وعن فلان؟

وأجبت ـ صادقًا أيضًا ـ : كلا!

وأطرق فى حزن وأسى. . . ولكنى مازلت به حتى اقتنع بأن زوجته فوق مستوى الشبهات! وصارح زوجته بما دار بينه وبينى، وشكرتنى على رأيى فيها. . . وقلت لها إن هذا ليس رأيًا، ولكنه الحقيقة.

والتقيت بها اليوم فى الطريق. . . وصافحتنى باطمئنان. وصافحتها فى حذر.

قالت : هل تذكر الوساوس التى عاناها زوجى، وجعلت حياتنا جحيمًا لا يطاق. . ؟ لقد بدأت تراوده مرة أخرى.

ودعتنى إلى زيارتها لتهدئة الجو. . .

فقلت : لا أستطيع! فسألتنى : لماذا؟ هل أصبح يشك فيك أيضًا؟

قلت : أنا الذى أشك...

فقالت : تشك فيه؟

قلت : أشك فيك!

ورمتنى بنظرة يتطاير منها الاحتجاج والدهشة.

وقالت فى نبرة دامعة : إن حظى عاثر، كل الناس يسيئون الظن بى، حتى أنت!

قلت : أنا ما أسأت الظن... أنا أحسنت اليقين... فقد رأيتك أمس بعينى مع فلان بالذات، فى الكباريه... ونور المائدة خافت والكأس فى يدك تقرع الكأس فى يده.

وتحولت الحمامة الوديعة إلى وحش مفترس!!

وقالت لى : لو صح ما تقوله فإنى لم أفعل شيئاً أكثر من الجلوس مع شخص أحبه... فهل الحب حرام؟

قلت : ليس هذا حبًّا، ولكنه خيانة... فأنت زوجة وأم.

قالت : هذا أمر يخصنى وحدى.

قلت : ولماذا تريدين منى أن أتدخل فيما يخصك وحدك؟!

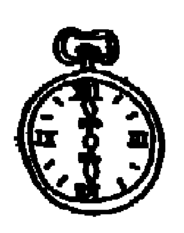
قالت : ظننت أنك لا تحب خراب البيوت...

ـ سيدتى خراب البيوت خير من هدمها على أصحابها...

وأنت بهذه التصرفات تهدمين البيت عليك أنت وزوجك وأطفالك الثلاثة...

قالت: الله يعلم أنى لست مجرمة.

- صدق أنت لست مجرمة فقط.. أنت مجرمة.. وجريمة!

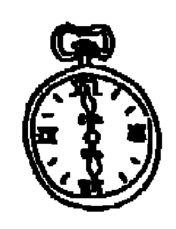


ما أشبه طريق حياتى ببيتى، نصفه مفروش والنصف الآخر خال من الأثاث... أتلفت ورائى فأجد الأيام تغطى طريق، وأنظر أمامى فأرى الطريق عاريًا إلا من يوم أراه، ويوم لا أكاد آراه!

يا شقوتى من طريق... يثير خوفى كلما تقدمت خطوة، ولا أستطيع أن أرجع إلى الوراء فهذا محال..

هل أقف مكانى وأتجمد حتى لا أصل إلى العراء الذى ينتشر كالظلال القاتمة؟ إن الوقوف والتجمد، كلاهما موت، وأنا لا أخاف الموت، ولكنى لا أسعى إليه!

وإذا ما أرسلت بصرى أمامى أحسست الوحشة والكآبة، وشعرت بأنى فريسة لخيانات تنبع من أعماق. وليس هذا الشعور وهما. فقد خاننى عمرى... سرق شبابى واختلس قواى. خاننى ذكائى فظننت الأبيض أسود، والأسود أبيض! وخانتنى ذاكرتى فنسيت من أنا؟ توهمت أنى ما أزال قادرًا على أن أجدد صباى بانفعال عاطفى جديد... وفى لحظة تبين لى أنى لا أجدد صباى، ولكنى أجدد شيخوختى! فأفقت من غفلتى، وأخذت حذرى من خيانات العمر، والذكاء، والذاكرة... ولم يسعنى إلا أن أرضخ للحقيقة، وأهرب من انفعالى الجديد!



لا تخف منه... إنه ليس وحشًا وإن كانت ملامحه مخيفة... وليس حشرة برغم أن كل ما فيه ينضح بالقذارة... لعابه الذى ترك فمه وأخذ يسيل على شفتيه... أنفاسه الهاربة من أمعائه ومعها رائحة خمر رديئة... بدلته

المتسخة التى التصقت به فى خوف وخجل... فصارت وكأنها جلد طبيعى يكسو عظامه! وفى هذه البدلة المتسخة بثور، وقروح، ودمامل... لونها يمتقع، ويحتقن، ولها مسام!

ولا تسأل من يكون؟ فما هو بكائن، ولكنه بقايا إنسان دفن عمره فى غيبوبة مفتوحة العينين... وأهدر آدميته بأوهام غامضة، وغباء صريح!

ولقد نفرنا منه عندما رأيناه أول مرة ثم اختلط بنا. وكانت تصرفاته تدفعنا إلى أن نتعقبه بالازدراء والسخرية. كنا نستريح إذا ما أحسسنا أنه قد تعب من ازدرائنا له، وتهدأ أعصابنا كلما ثار على سخريتنا منه!

ويومًا بعد يوم بدأ يتطاول علينا بالشتم والسباب... وبدأ بعض القساة من أصدقائنا يؤدبونه بركله فى ظهره، أو صفعه على قفاه... وكان إذا هاج وثار أقنعناه بأنه يتجنى علينا... فإن ظهره هو الذى يركل أقدامنا... وقفاه هو الذى يصفح أيدينا... وكان يسلم بهذا المنطق فى بلاهة وغطرسة!

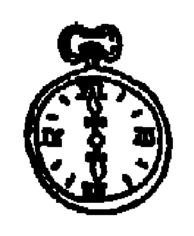
وأخيرًا اختفى، وظننت أنى لن أذكره حتى بالنسيان، وإذا بى أبحث عنه، كما لو كان صديقًا انقطعت أخباره...

احسست أن عقليق تريد أن تتثاءب، وتتمطى، وتسترخى على اريكة من جنونه،.. ومن أفكاره التى تعيش فى غيبوبة!

أفكارى التى تؤرقنى تتمنى أن تغفو بضع لحظات على وسادة..

إننا فى حاجة إلى كل إنسان، حتى لو كان هذا الإنسان تافهًا أو أحمق. إن الناس هم الأردية التى نلبسها فى الحياة... فيهم الملابس الداخلية وبينهم المعطف الذى نـدفىء به الجسد، وبينهم ربطة العنق تزين الصدر، بينهم الحذاء الذى يحمى القدمين من الحفاء...

ولقد شعرت وأنا أبحث عن ذلك الإنسان بأنى أسير حافى القدمين... فلما عثرت عليه فرحت به، ومددت يدى إليه فى حرارة، وصافحته بصوت مسموع... وخيل إلىّ أنى قد وجدت الحذاء ووضعت فيه قدمى... وأن رنين المصافحة ليس إلا قرقعة حذائى وأنا أمشى فى الطريق!



قالت لى : ما الفرق بين الصداقة والحب؟

ـ الحب حاد، والصداقة عميقة.

قالت : أيهما أقرب إليك صديقك أم أخوك؟

ـ لقد أجاب عن هذا السؤال عربى عاش فى عصور الجاهلية فقال : إنما أحب أخى إذا كان صديق...

قالت : وما رأيك فى فلان؟

ـ صديقى أحبه ويحبنى!

ونهضت من مكانها وأعدت جهاز التسجيل، وأدارت شريطًا سمعت فيه صوت صديق وكان يتكلم عنى، بكلمات لها أظافر وأنياب!

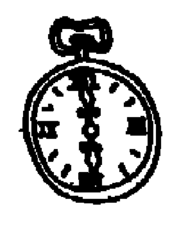
ولم أستطع أن أقول شيئًا...

فسألتنى : ما رأيك؟ هل اقتنعت بأنك لم تكن على صواب حين منحت صديقك هذا ثقة عمياء؟

ـ سامحه الله!

قالت : هل تريد أن توهمنى بأنك نبى؟

قلت : أنا كالأنبياء... والفرق بيني وبينهم أنهم معصومون من الخطأ، أما أنا فمعصوم من الصواب!!!



كان التليفون هو المكان الوحيد الذى يجمعنى بها. كنت احس وأنا ادير القرص أنى لا أحرك أصابعى، ولكنى اخطو بقدمى إليها... فإذا وصل إلىّ صوتها سمعتها بروحى، وصافحتها بخيالى، ورأيتها بأذنى..

وتعودت أن أخاطبها صباح كل يوم، حتى أستطيع أن أستقبل يومى بدفء، ونشوة، وتفاؤل.

قالت لى : إن تليفونك يوقظنى فى وقت مبكر.

قلت : هل يضايقك رنين التليفون؟

قالت : يضايقنى أن أصحو وأنا فى حاجة إلى النوم.

قلت : العنينى... فقديمًا قيل : الفتنة نائمة لعن الله من أيقظها!

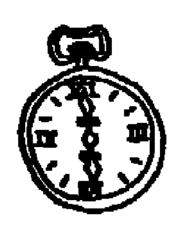
قالت : كيف ألعن إنسانًا أعتقد أنى شىء فى حياته؟

قلت : أنت واهمة... فلست فى حياتى شيئًا... أنت كل شيء!

وأرادت أن تخفف الملى بضحكة جافة مقتضبة، ولكن ضحكتها حولت الملى إلى سكين ذبحت أصابعى، فلم أستطع منذ ذلك اليوم أن أدير الأرقام الخمسة التى ظللت سنتين أديرها فتتجدد بها دورة دمى، ودورة روحى...

وأصررت على ألا أخاطبها فى التليفون ما حييت. وأنا أعلم ما سأعانيه من عذاب، إن قمة الحب أن تتعذب فيه بعناد وكبرياء..

ولن أتخلى عن عنادى وكبريائى فأنا مولع بالقمم!



فاجأتنى بزيارتها، وكنت أجلس وحدى أتأمل وأكتب... وعندما رأتنى تراجعت وقالت : سأعود إليك بعد قليل، حتى لا آخذك من نفسك!

ـ لم تأخذيني من نفسي ولكنك الآن تأخذينني إليك.

قالت: أنت مشغول!

وأدنيت منها الورقة وقلت لها: اقرئي وسترين أني مشغول بك...

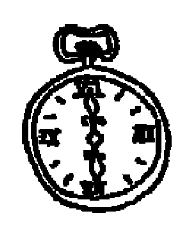
فقد كنت أحاول التعبير عن شوقي إليك بكلمة...

قالت: سأتركك حتى لا تحرمني من شوقك إليّ؟

ـ وأنا لن أتركك حتى لا تحرميني منك!

قالت: إن الشوق ألذّ من اللقاء.

ـ الشوق هو اللذة الوحيدة التي لا تتخلى عني... فهي تكون نبض قلبي كلما انتظرت اللقاء، وكلما تم اللقاء! فالحب انتظار ولقاء... بل إن الحياة نفسها انتظار ولقاء... وما هي الحياة؟ إنها أهداف نلتقي بها في شوق، أو ننتظرها في شوق!!



ما أشد نفورى من كل شيء عار.. . إنسان، فضاء، مكان. الإنسان العارى من الثياب، أو الذكاء، أو الأخلاق، أو الثقافة يفزعنى. الفضاء، العارى من الهواء يخنقنى. المكان العارى من الأبنية أو الزرع، أو الماء، أو الحركة يخيفنى!

كل ما هو عار أتهيبه، إلا هذه القطعة من الأرض التى تعترض طريق بيتى... فإنها لا تكتسى بالزرع، أو الماء، أو العمارات، أو الحركة، ولكن تكتسى بسرادق واسع لتستقبل به الناس وتودعهم... وأى ناس هؤلاء الذين يلتقون بها؟ إنهم أصدقاء الموتى، يجيئون ليشيعوا جنازة، أو يتبادلوا العزاء. وتلمح على وجوههم الوجوم والكآبة... والوفاء! كلمات واحدة يرددونها ويسمعونها، والأرض المسكينة لا تكاد تخلع سرادقها وتتعرى، حتى تعود وترتدى نفس السرادق، لتشييع جنازة جديدة!

والذين يترددون عليها اليوم ليعزوا فى فقيد، سيصبح كل

منهم ذات يوم فقيدًا يعزى فيه النـاس... هنـا فى هـذه الأرض التى تتعرى يومًا، وتكتسى بضعة أيام!

كلما استقبلتنى هـذه الأرض وهـى تتـدثر بقـطع القماش المرفوعة كالحائط، انقبضت نفسى!

لا أدرى هل أشعر بـالانقباض لأنى أعـزى فى ميـت، أو لأنى أشعر بأن المقعد الذى أجلس فيه لأعزى اليوم، سيجلس فيه غيرى غدًا ليعزى أهلى فى موتى!

ولكن كيف نفكر فى الموت ومـا زلنـا أحيـاء... وهـل نستطيع أن نفكر فيه بعد ما نصبح موتى!

إن العقلاء هم الذين لا يفكرون فى الموت، وعبثًا أحاول أن أكون واحدًا من العقلاء!!



هذا البحر، كم عرفته ثـائرًا يعـربد كسكران، ويتمـرد كعقل فيلسوف... ميـاهه تهدر، وتـزأر، وتنـطح الشـاطىء، ويمد لسانه إلى الرمال يلعقها، ويحمـل على كتفيـه المصـطافين

العرايا، فيعلون فوق الموج، أو يهبطون تحت الموج!

إنه فى هذه الأيام يعانى هدوءًا غبيا، واستكانة بليدة... لقد مد ذراعيه، وساقيه، واستلق على ظهره، وتدثر بغلالة زرقاء كلون السماء التى بدت من بعيد وكأنها قبة انغرست جدرانها العريضة فى أعماق البحو، ملأ سقفها رقعة الفضاء!

الماء لا يركد، ولا ينتفض ولكن يتحرك فى غموض كسطور مكتوبة فوق شاشة السينما... كلما حاولت أن تقرأ سطرًا اختنق وظهر سطر آخر يختنق أيضًا قبل أن تقرأه!

ورنوت إلى البحر بعيون كثيرة مبهورة، عيون ذكرياتى، وانفعالاتى، وخلجات نفسى.

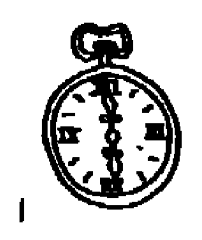
هل هو مريض؟ هل هو حزين؟ هل هو ينفض قلبه من غبار حب قديم، ويتهيأ بنبضاته لحب جديد؟

لا... إن البحر الساحر العبقرى، فنان، إذا لم يجد حوافز خارجية تشحذ صخبه، عكف على تأملاته، وهدأ، واسترخى!

وهو الآن لا يجد ما يحفزه إلى الصخب، ولا ما يغرى به بالنشوة... لقد كانت شواطئه مسرحًا لرقصاته على أنغام

موسيق يعزفها قوام رشيق يتلوى من انهيال نظرات الإعجاب عليه ! وملامح جذابة حادة دافئة، تلهب الأشواق، وتنتفض بها العروق، وبشرة متوهجة ناعمة، شقراء وبيضاء، تحسدها الشمس، ويغار منها النهار. . . وشعر أسود فاحم لامع تتهدل خصلاته على العين المتحفزة دائمًا للسحر والفتنة ! ونام البحر. . . بعد ما سكتت الموسيق التى لا تعزف إلا فى موسم الصيف !.

استيقظ يا بحر. . . فإن هنا على شاطئك من تغريك وحدها بأن تنتشى، وترتنح، وتغنى، وتضرب بأمواجك الصخور والرمال. . . ولا تسألنى عنها. . . فلست أعرفها. . . كنت مثلك نائمًا، ورأيتها فاستيقظت مشاعرى وتلاطمت أمواج قلبى.



ناس تتجمع وتتفرق، ذراع مشبوكة فى ذراع، أحضان تعبر عن فرحة اللقاء، ولهفة الوداع. قبلة على جبين، ابتسامة

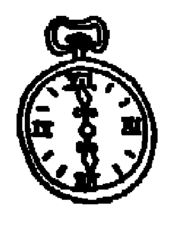
رزينة، قهقهة مجنونة، أصوات تعلو، وتنخفض، رؤوس تـدنو من رؤوس، مقاعد، موائد، جرسونات باب واسع يلتـق فيـه القادمون والراحلون، مـــن رجـــال، ونســـاء، وأطفـــال، وحقائب. . .

وردهة الفندق تمتلىء فى أول الليل كبطن أكول. . . وتفرغ فى آخر الليل كقفص الاتهام بعد ما تنتهى جلسة المحكمة!

وجلست وحدى أراقب من يأتى، ومن يذهب، فيهم مـن أعرفه، ومن لا أعرفه، ولمحت بينهـم تـوأمين مـن مـواليد إيطاليا. وقد عاشا فى الإسكندرية منذ زمن بعيد، وهمـا الآن فى حدود الثمانين. أحدهما تزوج وهو شاب، والآخر لم يتزوج، وكانا يتجهان إلى الباب، فى خـطى متشـابهة. . . الأخ المتزوج يتعثر وهو يستند إلى ذراع زوجتـه الـتى تصـغره بعشريـن عامًا. . . فهى فى الستين فقط والأخ الأعزب يتعثر وهو يتـوكأ على عصاه!

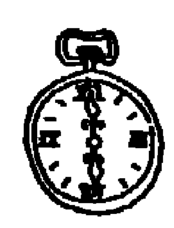
وأحسست أن القدر ساق لى هذا المنـظر لأتمـنى مصـيرى عندما أصبح شيخًا محطمًا. . . هل أواجه شيخوختى وأنا أتـوكأ على عصا، أم أواجه شيخوختى وأنا أتوكأ على ذراع زوجة!

ولم أتردد فى أن أتمنى... تمنيت أن تكون لى عصا!



لا تطاردينى هكذا... إننى لا أراك، ولا ألتق بك. فلماذا ترغميننى على أن أعيش معك دائمًا بالخيال والذكرى؟

ما أقسى هذا الجمال الذى يتعقبنى... كلا... ليس ما يتعقبنى جمالها، ولكن الذى يتعقبنى حنينى الطائش، ووفائى الأحمق!



الشوارع، مثل الناس، بينها الغبى الثقيل الظل، وبينها الذكى الخفيف الروح... والطريق الصحراوى أنيق رشيق، ذكى. ولكن ذكاءه يخونه أحيانًا فيفقد أناقته، ورشاقته، وخفة روحه، ويصبح طريقًا غبيًا ثقيلا، كوجه كالح اختفت ملامحه

وراء التجاعيد، أو كقوام ممشوق أصابه الترهل... فصار له أكثر من كرش بارز... أعضاؤه مسترخية، وأنفاسه تلهث من فرط الإعياء!

وكم أضيق بهذا الطريق إذا قطعته فى صحبة ناس شعورى بهم غامض! إنى لا أحس دمامة الطريق... وغباوته ليس إلا، ولكنى أحس أنى لا أتحرك فوقه، وإنما هو الذى يتحرك فوقى!

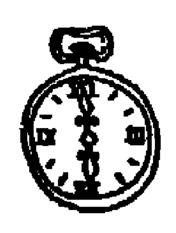
ولقد أخذنى الطريق اليوم بسحره أخذًا لذيذًا، كانت السيارة التى تحملنا لا تخترقه، ولكن تلثمه وتعانقه فى شوق ونشوة... الحصا الصغير المنثور فى رحاب الصحراء لا يلمع تحت وهج الشمس ولكن يبتسم! الرمال الغزيرة تفرش حافتى الطريق كبساط أصفر! الهواء يتحسس النوافذ الزجاجية بأنامل باردة، يغطيها قفاز، من جو الخريف!

وكنت أتابع الشمس وهى تتدثر بالسحاب، وتتعرى من السحاب ويحتقن لونها، ويبهت، ويمتقع. ثم أخذت تنكمش وتتلاشى حتى أصبحت خطوطًا حمراء وبيضاء...

أين ذهبت؟ لقد كانت منذ لحظة قرصًا ملتهبًا... كيف

ذاب قرصها هكذا، ولم يعد منه إلا خيوط ترتعش فى صفحة السماء ؟

لقد رأيت من خلال السحاب، يد الله، وهى تمحو القرص الملتهب، لتعيد رسمه من جديد !



تسمرت قدماى عند باب المستشفى، فقد التقيت بالطبيب الذى يعالج صديق من مرضه الخطير، وسألت الطبيب عن حالة المريض، فوضع يده فوق كتفى، كأنما يريد أن يتوكأ عليها حتى لا يتعثر وهو يتكلم. . . وقال : لقد خرج الأمر من يد الطبيب، وأصبح فى يد الله !

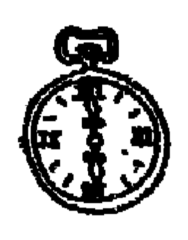
واجتاحتنى كآبة مخيفة. حاولت أن أجتاز إلى داخل المستشفى أو خارج المستشفى، فلم أستطع. كانت خطواتى ترتعش. . . لا بل كانت تئن، وتختنق، وتكاد تجهش بالبكاء !

وأخذت الأسئلة الطائشة تنطلق من رأسى، وتنهال على

رأسى... ما أعجب أن نموت بلا منطق! ولكن فيم العجب؟

إننا لا نعرف لماذا نحيا، فعلام نصر على أن نعرف لماذا نموت؟

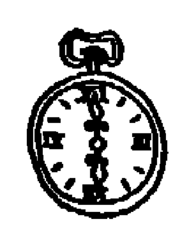
ويا لها من بلاهة، أن نطمئن على المريض وهو بين أيدى الأطباء ونخاف عليه إذا ما أصبح بين يدى الله!



كان يتمتم بصوت هامس كالنجوى... ويقول: يا خجلى منك! إننى أراك كما أنت، وعبثًا أحاول أن أغمض عينى... فإن عيونك العارية، لا تقل فتنة عن ساقيك العاريتين!

ساقاك ترقصان فتثيران رعشة الحنين إليك... وعيونك العارية الراقصة تثير سخريتى من نفسى، عندما كنت لا أراها!

غطى ساقيك... غطى عيونك... فلن تثيرينى بعد اليوم... لقد نضب حنينى، ونضبت غفلتى!!



كلما مر بى يوم، اعترانى شعور يهزنى من أعماقى فى عنف وغموض. أحيانًا يخيل لى أن اليوم الذى مضى قد سرق قطعة من حياتى. وأحيانًا يخيل لى ويومى يتسرب منى، أنى لم أفقد شيئًا. ولكنّى تخلّصت من ضيف ثقيل! فالأيام هى العمر. وهل العمر إلا ضيف احتل مائدتى، وهل أنا إلا ضيف أحتل مائدة عمرى وكلانا بالنسبة إلى الآخر غير مدعو... ضيف ثقيل!

وأحيانًا تنتابنى حيرة لا أستطيع معها أن أحزن أو أفرح... لأن الأيام التى تنقص من عمرى، تزيد فى سنى، وتجربتى. وثقافتى، وانفعالى بالجمال... فكيف أحزن على النقص، ولا أفرح بالزيادة؟ إننى دائمًا ناقص، وزائد!

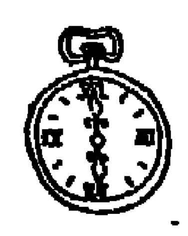
ولكن ما فائدة أن تزيد تجربتى وثقافتى ما دامت رقعة حياتى تنكمش وتضيق؟

ما جدوى الانفعال بالجمال ولم يعد فى استطاعتى أن

أمارس انفعالاتى إلا بعين تلعثمت نظراتها... وقلب متعثر النبضات !

ما هذه الأيام التى تمضى إلى غير عودة ؟ وإلى أين قد مضت ؟

إنى من فرط شعورى بالغيظ أكاد أجرى وراءها لأستردها. ولكني لا أكاد أضع يدى عليها حتى أجدها قد تحولت إلى هباء !



عدت إلى البيت قبيل الفجر. الشارع كله يغط فى النوم. لا شيء يقظان إلا المصابيح المتفرقة على جانبى الطريق، وبدلة عسكرى الدورية... أما العسكرى نفسه فقد نام فوق كرسى !

ولم أكد أتهيأ للنوم حتى سمعت ضجة غير عادية تنبعث من الخارج، وفتحت النافذة، فرأيت عربات تحمل مقاعد. وسجاجيد. وأقمشة كثيرة لونها واحد... وعمالا يحفرون

الأرض ليغرسوا فيها أعمدة يسندون إليها السرادق!

ودبت اليقظة فى الشارع. ناس واقفون، وآخرون ينظرون ثم يمشون، الأضواء تنتشر من شبابيك العمارات، وارتفعت صرخات حزينة من العمارات المقابلة لبيتى.

وسألت أحد العمال: ما هذا؟

فقال: هذا مأتم... وعدت أسأله؛ من الذى مات؟ فقال: لا أعرف؟

ولمحت بواب العمارة... فسألته، وعرفت منه اسم الفقيد، وموعد تشييع الجنازة.

وسألته: هل كان الفقيد مريضًا؟

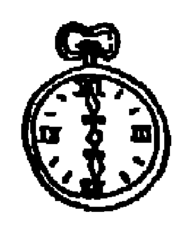
قال البواب، والدموع تطفر من عينيه لا!!

قلت: هل كان سهران فى هذه الليلة؟

قال: إن الفقيد رحمه الله لم يعرف السهر خارج البيت، ولا داخل البيت!

ما أعجب الموت؟!! لماذا اختار هذه الساعة المتأخرة من الليل، ليقبض روح إنسان لم يتعود على السهر طول حياته؟

هل كان الموت نائمًا، وصحا مبكرًا ليؤدى رسالته الرهيبة؟! أم أنه، مثلنا، يحب الليل، فيعيشه ويسهره... والفرق بيننا وبينه أننا نسهر لنلتهم الحياة، وهو يسهر ليلتهم الأحياء؟



رقتها تتحداك - بقسوة - أن تنساها... أنوثتها النابضة بالفتنة والجاذبية، تثير فيك رعشة الإعجاب، ورعشة الخوف... إنها بحر هائج يحتضن زورق... ثورة بركان أقف على حافته... عقل ملحد خارق الذكاء يناقشنى فى عقيدتى وإيمانى!

نظرات عينيها تأمرنى بأن أتعذب... ابتسامات شفتيها تعدنى بإنقاذى من العذاب!!

ورأيتها مرة واحدة، وصدقت عيناها فشقيت... وكذبت شفتاها فما أزال إلى اليوم أعانى الشقاء!

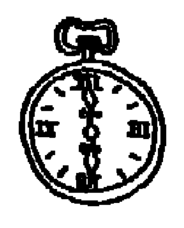
ومنذ يومين كنت أستقل إحدى سيارات الأجرة، واخترقت شارع سليمان، وبغتة فتحت شارة المرور عينها الحمراء، وصوبتها إلى السيارات فاحتجزتها واحتجزت سيارتى معها. وفتحت عينها الخضراء واتجهت بها إلى المارة، فأخذوا ينتقلون من رصيف إلى رصيف...

ثم حولت الشارة عينها الحمراء إلى المارة فوقفوا، وحولت عينها الخضراء إلى السيارات لتنطلق... ولكن السيارات وقفت وظلت كما هى بلا حراك! لقد تسمرت عيون سائقيها وركابها فى الواقفين... فى سيدة منهم جذبت إليها كل ما فى الشارع من ناس. وعربات، وأرصفة، ودكاكين...

ولم تتحرك السيارات إلا بعد ما رمقتها شارة المرور مرة أخرى بالعين الخضراء... فقد تركت السيدة مكانها مع المارة، وغابت عن الأنظار... وكنت أسمع موتور السيارة وقد استعدت للانطلاق، فأحس أنه يئن ويتنهد!

إن السيدة التى احتجزت السيارات وعطلتها عن المرور فى شارع سليمان بضع دقائق. هى نفس السيدة التى احتجزت قلبى عامًا كاملا... ومنعته من المرور فى أى طريق... حتى طريقها لا أستطيع أن أسير فيه، لأنى لا أعرفه!!

احتشم يا قلبي... فالحب طيش وشباب... وأنت طيش فقط!



كانت تجلس وحدها فى حديقة النادى، وقد غطت عينيها بنظارة سوداء، لتتفادى الأضواء التى تغمر كل مكان بحدة وخيلاء... واتجهت بنظراتها إلى الأفق الرحيب، كأنما تبحث عمن يستحق أن تبثه ما تعانيه...

وقد أطبقت فمها، فبدا بشفتيه المكتنزتين الحمراوين الملتصقة إحداهما بالأخرى، كقبلة الوداع... حارة وحزينة!

وكنت أجلس إلى مائدة قريبة منها، فسمعتها تتكلم، على الرغم من التصاق إحدى شفتيها بالأخرى... وأحسست أن ما حبسته من دموع قد انطلق إلى بابى عينى، وما خبأته من كلمات قد فرّ إلى أذنى...

كانت تقول: ترفق بى... إلى متى أشرب الآسى،

فأسكر، وأترنح، وأطلق ذراعي فى الهواء، وأدور حول نفسى... وعلى إيقاع آهاتى أرقص وأغنى، ودمائى تسيل وتنزف!

ووضعت رأسها فى إطار من كفيها الرقيقتين، ولمحتنى بغتة، وظننت أنى سمعت خلجات نفسها... وأرادت أن تتأكد من ظنها، فقالت لى: اغفر لى حزنى!

واحترمت حزنها فلم أقل كلمة، وأطرقت برأسى إلى الأرض.

فسألتنى:

ما هو الحب؟

- إن تعريف الحب يخدش قداسته!

قالت: لو استطعت أن أضع يدى على الحب لأنشبت فيه أظافرى، وانهلت عليه، أعضه، وأخنقه، وأذبحه!

- لن تفعلى ذلك فالحب قلب ينبض فى ضلوع أعمارنا... وقد يؤلمنا القلب، فنستلق على ظهورنا، ولا نرهقه بالحركة، ولكنا لن نتخلص منه إلا إذا أردنا أن نتخلص من الحياة!

قالت : هناك كثيرون لا يحبون... وهم مع ذلك يعيشون بلا آلام...

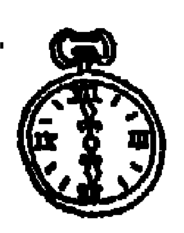
- ما أكثر الذين لا يحبون... ولكنهم لا يعيشون!

قالت : أنت الآن بلا حب... ومازلت تحيا!

- ربما.. ولكنى لا أحيا وإنما أنا فى إجازة من الحياة!

قالت : قل لى... هل الحب جنة؟... هل الحب نار؟

- الحب جحيم يطاق... والتحرر من الحب جنة لا تطاق!.



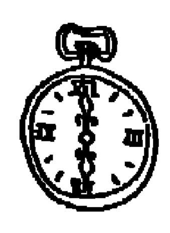
اعترضنى وأنا أعبر الشارع، وحيّانى بعبارات رقيقة زعزعت خجلى من قيمة ما أكتبه للناس...

وقال لى : هل استطيع أن ألقاك فى المكتب، أو فى البيت؟

وقلت له : ليس فى مكتبى ولا فى بيتى ما أقدمه إليك... قابلنى هنا، فى هذه الصفحة... فهذا هو المكان الوحيد الذى أستطيع فيه أن أضغط على أزرار من الحروف فأجد ما يستحق أن أضعه بين يديك... وأضغط على أزرار أخرى من الحروف أيضًا فيستقبلنى معك عشرات الألوف من الأصدقاء !!

قال : تعنى عشرات الألوف من القراء ؟؟

وعاودنى خجلى... فصافحته بيد مرتعشة، وبنفس اليد المرتعشة كتبت هذه السطور !



صديق عمرى. مهندس، وشاعر، ورسام. أعداؤه يعترفون بمواهبه، ولكنهم يتهمونه بالغدر، وخيانة الأصدقاء، والتآمر على الناس، حتى نفسه، حتى مهنته، وهوايته، وموهبته !

وأصدقاؤه يتهمونه بالوفاء، والصراحة، وحب الخير..

وأحصيت أعداءه.. فإذا هم مئات، وأحصيت أصدقاءه فلم أجد له صديقًا سواى!

وحاول أن ينهشنى وأنا أنحنى عليه أضمد جراحه... ولم أتألم، ولكن أشفقت عليه من مواجهة أعدائه! كيف أدفع أذاهم عنه، وأنيابه مغروسة فى عنق؟

رفقًا بأنيابك يا صديق... فلن تقتلنى... إننى أعيش بالحب، وأنت تعيش بالكراهية. والحب انتصار، والكراهية خذلان... سأبتعد عنك. ولكن لن أحقد عليك... أعداؤك فقط هم الذين سأحقد عليهم، فقد كانوا أذكياء، وكنت أنا الغبى!

يا صديق عمرى... لقد أخذت صداقتى وألقيت بها فى البحر، فلماذا لم تأخذ معها عمرى!

ولن أبتعد عنك وحدك، سأبتعد عنك وعن أعدائك حتى أوفر من وقتى كل يوم ساعة كنت دائمًا أقضيها فى الدفاع عنك... ولم أكن كاذبًا فى دفاعى، ولكنى كنت صادقًا، وكل ما حدث أنك خدعتنى بكذبك، وأنى خدعت نفسى بصدق!

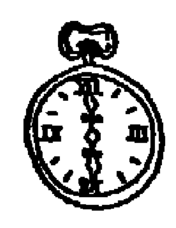
عدنا من المقابر. وقد خنقت الحسرة أصواتنا. نحاول أن نتكلم فنلهث. نحاول أن نتكلم فنبكى!

وبدأت أعصابنا تهدأ، واقتربت منى، وأخذت تسألنى، وكأنها تستجدينى... لماذا نموت؟

وسألتها: ولماذا نحيا؟

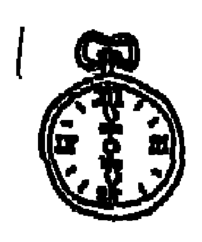
لم استطع أن أجيب على سؤالها، ولم تستطع هى أن تجيب عن سؤالى...

ولم أعرف حتى هذه اللحظة... أى السؤالين أقسى؟!



الشارع ضيق، كقلب ذكى، أو عقل غبى... وليس فى الشارع إلا خمسة بيوت بينها بيتى، وعبثًا حاولت أن أهتدى إليه... فقد تغيرت معالمه. الغرف التى كانت تحتل مدخله تحولت إلى دكاكين... البدروم الذى كان مخصصًا لندواتنا ونحن أطفال أصبح مخزنًا.. الدور الرابع تهدم... بقية الأدوار بدت وكأنها تصطك كأسنان عجوز فى ليلة من ليالى الشتاء!.

وأحسست رعشة تسرى فى مفاصلى... ما أشبه هذا البيت بى! لقد شاخ مثلى، وتهدمت مثله!



قل لى آخر قصيدة لك... وأطرقت برأسها، لتسمع!.

وأطرقت أنا الآخر برأسى، ولم أقل كلمة!!

وعادت تسألنى أن أقول شيئًا من شعرى.

وقلت لها لم يعد عندى شعر، ولم يعد عندى شىء.

قالت: لماذا؟

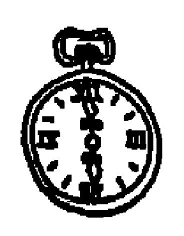
قلت: عندما أحب أقول الشعر...

قالت: لقد كنت تحبَ...

- وكنت أقول الشعر!

قالت: والآن؟

- لا أقول...



عندما رأيناه أول مرة فى هذا المكان الهادىء، انتابنا الفزع. تصورناه جثة تسللت من قبور الموتى. صيحاته صراخ. وهمساته أنين. تتكسر الألفاظ فى فمه من كثرة ما يضغط عليها بحلقه وأسنانه... فى صوته فحيح أفعى. وعواء ذئب. وخوار ثور يوشك أن يهيج... فإذا وصل الصوت إلى أذنيك احسست أنك تسمع حشرجة أنفاس وهى فى الرمق الأخير!!

إذا انتصب قائمًا فهو شبح. وإذا تهادى فى مشيته فهو نعش ليس وراءه مشيعون... وإذا جلس مكانه فهو ضريح... لا يرتدى ملابسه. ولكن يلتف بها كما لو كانت كفنًا... جسده رمة. ورأسه جمجمة...

يرى عربة الزمن وهى تنطلق فيلعنها ويقول فى خيلاء بلهاء: لو شنقونى لما ركبت هذه العربة.

كان مهندسًا ـ هكذا يقول ـ وقد توقف عن المعرفة. والمتابعة وتعطل جهاز عقله... فهو... مايزال يتحدث عن المندوب السامى البريطانى. ويطالب بالجلاء، ويعجب كيف

سمحت الحكومة بهدم ثكنات قصر النيل... لأنه لا يدرى أن الإنجليز خرجوا من بلادنا فعلا. وأن أبنية الجامعة العربية والهيلتون، وبلدية القاهرة. قد شغلت المكان الذى كانت تشغله ثكنات جيش الاحتلال...

أحيانًا يصغى، وينظر. ويقرأ ولكنه لا يعى. ولا يرى.. ولا يفهم...

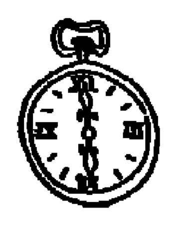
الألفاظ التى يستعملها ينخر فيها السجع، والسوس، وتراب القاموس...

الأسماء التى يرددها تسبقها دائمًا كلمة «المرحوم».

أبرز معانيه أنه بلا معنى... يقاسى محنة «السقوط فى الماضى» وعبثًا حاولنا أن ننتشله من محنته... كنا نشده إلى اليوم... فينزلق منا إلى الأمس... ندفعه إلى أمام.. فيظن أننا نصفعه فيثور لكرامته وينهال علينا بالصياح والعويل!! كل ما فيه غابر، متلكىء، عتيق.. الأمثلة الركيكة التى يحفظها.. الشعر التافه الذى يترنم به... الطربوش الواسع الذى ينكفىء على وجهه كمظلة، أو يستقيم فوق رأسه كطرطور...

كلما اختلط بنا، أحسست الضيق والانقباض... ولا

أدرى ماذا أصنع معه؟ هل أسخر منه؟ أم أبكى عليه؟ ثم أبكى عليه..



قالت له : إن مكانى هناك... ولابد من أن أذهب إليه.

فسألها : وقلبك أين؟

قالت : فى ضلوعى...

قال : أما آن لهذا القلب أن يتطور... ويتمرد على قضبان الحنايا. وسجن الضلوع...

قالت : أنت لا تقنعنى... لأنك شاعر...

قال : وهل الشعر إلا عاطفة صادقة؟

قالت : الشعراء يخدعوننى عندما يكذبون، ويخدعوننى عندما يصدقون!!

وأنشب صديق نظراته فى الفضاء كأنما ينقب فيه عن شىء ضاع منه... قطعة ذهبية... فكرة... ذكرى.

وبغتة أدنى رأسه منى. ظننت أنه يريد أن ينطحنى...
فإذا هو يريد أن ينقل إلىّ عدوى السعادة التى اعترته اليوم
كالحمى...

قال: اتصلت بها فى التليفون قبيل الظهر. فقيل لى إنها
نائمة، وعجبت. فهى تذهب إلى بيتها دائمًا فى وقت مبكر!!
وعدت واتصلت بها بعد الظهر. فوجدتها قد استيقظت
وسألتها: لماذا تأخرت فى النوم؟ فقالت إنها ظلت الليل
تسمع موسيقى، وتقرأ كتبًا. ولم تنم إلا فى الصباح...

وانفرجت شفتاه عن ابتسامة ساذجة!!

وقال: أتدرى ماذا قلت لها؟

ـ لا...

قال: قلت لها: ليتنى كنت أسطوانة...

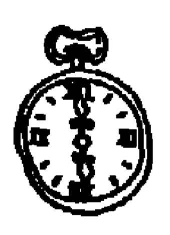
ـ لو كنت مكانك لتمنيت أن أكون كتابًا.

قال: إن الموسيقى أجمل من القراءة...

ـ ولكن الاسطوانة لا تسعد من ملهمتك بغير
اللمس... ثم تتولاها الإبرة بالوخز الشديد... أما الكتاب.
فنه ينعم منها بحمله بين يديها، بنظرات عينيها فى سطوره،

يتأملها فى أفكاره، بإصغاء عقلها إلى مضمونه ومعانيه، بلمسات أناملها لكل صفحة من صفحاته...

وبادر صديق. وأدار قرص التليفون. وسمعته وهو يقول: ليتنى كنت كتابًا!!



كل ما فيه يثير الريبة والضيق. صوته غليظ حاد ينهش الأسماع حتى وهو يهمس... عيناه بارزتان تحملقان بلا هدف!! رقبته قصيرة مكتنزة... يداه عريضتان سميكتان. فمه مفرطح الشفتين، جسده تساوى فى العرض والطول... فهو إذا مشى يتدحرج!

عندما يصافحك تحس أنه لا يضغط على يدك. ولكن يخنقها، ويخنق أنفاسك!! ملابسه غالية... تكاد تكون أنيقة لولا أن قوامه متمرد بطبعه على الأناقة!

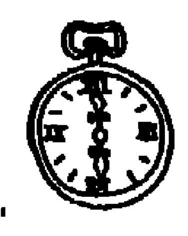
تلمع فى وجهه نظارة إطارها من ذهب، وتنتشر على صدره أكثر من سلسلة ذهبية ينتهى بعضها بمجموعة من

المفاتيح، وينتهى بعضها الآخر بمصحف صغير. وتطوق معصميه ساعتان كلتاهما مرصعة بالماس.

لا أعرف عن حقيقته شيئًا.. ولكن حركاته. وإشاراته، وتصرفاته توحى إليك بأنه رجل أعمال مريبة، جمع ثروته عن طريق التهريب...

وهو إذا تحدث يبهرك بعبارات تدل على أنه يتقن عدة لغات وهالنى أنه لا يعرف القراءة والكتابة بأية لغة!!

لأول مرة أدركت أن بعض الناس يستطيعون ـ بالتهريب ـ أن يجمعوا ثروة من النقود، وثروة من الألفاظ.

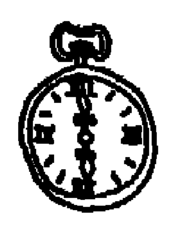


كان مفروضًا أن أكون معهم، أشاركهم الاحتفال بعيد ميلادها، فهى صديقة، وهم أصدقائى... ولكنهم نسوا أن يدعونى إلى الاحتفال. وتداركوا نسيانهم فذكرونى فى سهرتهم... قدموا إليها هداياهم، وكانت سيرتى أبرز ما فى

الهدايا... وضعوها أمامها مع «السطورطة»... ومع «الطورطة» مزقوها بالسكين...

ثم أكلوا. أكلوا «الطورطة» وأكلوا سيرتى...

لست غاضبًا من أصدقائى... أنا فقط أبارك شهيتهم المفتوحة وأبدى إعجابى بذوقهم فى اختيار الهدايا!!



رقيقة جذابة... أراها فأشعر بأنها أخذتنى من نفسى.. نظراتها إشاراتها.. همساتها تثير انفعالى بالحب. والخير، والجمال... أتوهم أن الحياة تحولت إلى رقصة فنية تعبر عن همومى وآمالى بالضوء والإيقاع.. أحس أن مشاعرها وأفكارها تغيب مع مشاعرى وأفكارى فى عناق طويل...

وكان صديق وهو يروى لى قصته لا ينطق الكلمات ولكن يرسمها بنبرة تفيض بالأسى...:

وسألته: لماذا هو حزين هكذا؟... مع أن الجو الذى صوره لى يغرى بالنشوة!!

قال : وماذا بعد النشوة ؟

- الحب. . .

قال : وما الحب ؟

- أن تقتحم العذاب، أو ترتفع فوق العذاب. . .

قال : لم يعد فى طاقتى وأنا فى سن الكهولة أن أواجه العذاب من جديد.

- إننا لا نحب بعضلاتنا، ولكن نحب بقلوبنا والقلوب لا تشيب. . .

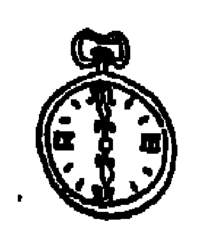
قال : هذا كلام. . . على أية حال اسمع بقية القصة. . . اتفقت معها على أن أتصل بها تليفونيًّا. ولكنى كلما رفعت سماعة التليفون، وأخذت أدير القرص تهاوت السماعة من يدى وأسمع دقات قلبى، وكأنها صوت تليفون مشغول ! !

هل هو مشغول عنها ؟

. . . لا. ! !

هل هو مشغول بها ؟ . . .

كل ما أريده من قدرى أن يرحمنى. . . ويقول : لا.



تحولت شكواى من تليفون إلى شك فيه... كان كلما تعطل... أصابه الخرس، فلا رنين ولا همهمة.. ولكنه الآن.. يتعطل فيعجز عن إرسال أية مكالمة، ولا يعجز عن استقبال أكثر من رقم غلط، وأكثر من مكالمة لا تخصنى!

ترن أجراسه فى أنحاء البيت بصورة مزعجة، وأرفع السماعة.. أحيانًا تصل إلى أذنى حشرجة فى الأسلاك، وأحيانًا أسمع حوارًا بين اثنين يتكلمان فى خط آخر...

وقد أصبح هذا الخطأ فى استقبال المكالمات عادة سيئة... بالنسبة لى، وبالنسبة للتليفون!

ورفعت السماعة، وقبل أن أدير القرص بالرقم الذى أريده، سمعت صوتًا هامسًا يقول، ولا أحد يرد عليه:

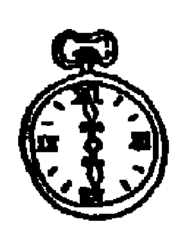
إن وجهك ليس غريبًا عنى... هذه الملامح أعرفها، إنها محفورة فى عروقى، تجرى فى دمى، تعيها ذاكرة قلبى!

لا تخدعنى... فأنت العذاب الشاب الذى عانيته عندما

كنت أستطيع ممارسة عذابى وشبابى.

أنت إلهاماتى وأشواقى القديمة بكل عنفوانها وقوتها... وما يبدو عليك من الحنساء ليس شيخوخة، ولكن تحفز لوثبة... وما يلمع فى شعرك الناعم الغزير ليس شيبًا، ولكن صبغة بيضاء!

وتلاشى الصوت. وعندما بدأت أعيد السماعة إلى مكانها، اتضح لى أنى ظلمت التليفون... فلم أكن أسمع منه أى صوت، وإنما كنت أسمع نفسى!



كلما رأيت قسماتها النبيلة، الحانية، الباسمة، المشبوبة بالنضارة... تأكد إيمانى بأن هذه القسمات لا يمكن أن يقتحم رقتها شحوب الحزن، أو تجاعيد الزمن!

ووجدتها ساهمة وسألتها عما بها؟ فشكت لى من غدر الناس... وتنهدت وهى تقول لا شىء يؤلمنى مثل الغدر!

وانطلقت منى ضحكة عالية، وبإشارة غاضبة قاطعتنى،

وردت ضحكتى إلى حلق وسألتنى فى غضب : كيف تسخر من مآساق؟

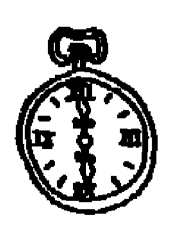
- أنا لا أسخر من المآسى ولكن أسخر من السذاجة... ولقد كنت فيما مضى ساذجًا مثلك، كان الغدر يؤلمنى، فلما عرفت طبيعة الناس أصبح غدرهم لا يظفر منى بغير الاشمئزاز...

قالت : معنى هذا أنك لا تتألم؟

- أنا لا أتألم إلا من المرض... فكونى مثلى!

قالت : ولكنى لست مريضة والحمد لله...

- إذن اشمئزى فقط!



كان يتحدث إلى بعض أصدقائنا بصوت يخيل إليك لارتفاعه أنه ينطلق من ميكروفون يكبر الأصوات... ولاحظت من بعيد أن المرح يرسم على شفتيه المستطيلتين، ابتسامات مختلفة الأحجام!

ولما اقتربت من مجلسه، سكت إلى أن أخذت مكانى بين أصدقائه وأصدقائى.. ثم أستأنف الحديث وهو يتجه بنظراته إلىّ، قال: كنت أحكى لهم قصة عمر وسعاد...

وسألته: هل تزوجا؟

فأخذت الابتسامات تزحف من فمه إلى وجنتيه اللتين تبدو كل منهما وكأنها تفاحة معطوبة...

وقال: كان مفروضًا أن يحتفلا بعقد القران يوم الخميس، وقبل موعد الاحتفال بيومين اثنين، كنا فى طريقنا إلى النادى، فوجدنا أم سعاد تجرى فى الشارع وهى تصرخ: بنتى... بنتى...

وسألناه جميعًا: لماذا كانت تصرخ؟ هل هى معترضة على زواج بنتها من عمر؟

فنهرنا... بعدد ضخم من الابتسامات، وقال لنا: انتظروا، انتظروا سأحكى لكم كل شيء!

ومضى يقول: لقد وقع حادث... وأطرق برأسه، وأطرقت معه ابتساماته، ثم استطرد فى سرد القصة

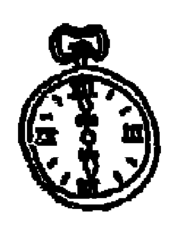
والابتسامات لا تفارق فمه، قـال : لقـد مـات عمـر فى الحادث. . .

وسألناه فى فزع : مات ؟ ؟.

وماذا جرى لسعاد ؟

فقال وهو يقترف ابتسامانه فى ضراوة : مـاتت سـعاد. . . واليوم ماتت أمها !

ليس الموت الذى قضى على فتاة وخطيبها وأمها، بـأقسى من هذا الرجل ينتفض وجهه بـالابتسام، وهـو يصـور مأساة. . . كل لحة فيها تجهش بالبكاء !

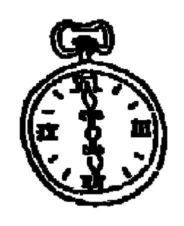


ما أقسى لحظة الانتظار. . . الشارع الكبير النابض بالحركة والناس، يكاد يخنق سمعى، ونظرات عينى. . . خفقـات قلبى تعلو وتعدو، فليس ما يدق فى صـدرى نبضًـا، ولـكن وقـع أقدام ثقيلة الخطوات !

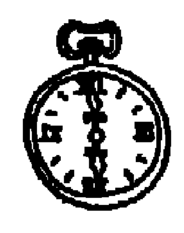
عقارب الساعة تنتقل ببطء وكسل وفى خاطرى عقارب من الشك تجرى، وتقفز، وتلدغ!

لقد ذهب الوقت المحدد للقائنا. ولم تجىء!

يا خجلى مما صيرنى إليه زمنى. كل شىء يذهب، ولا شىء يجىء!

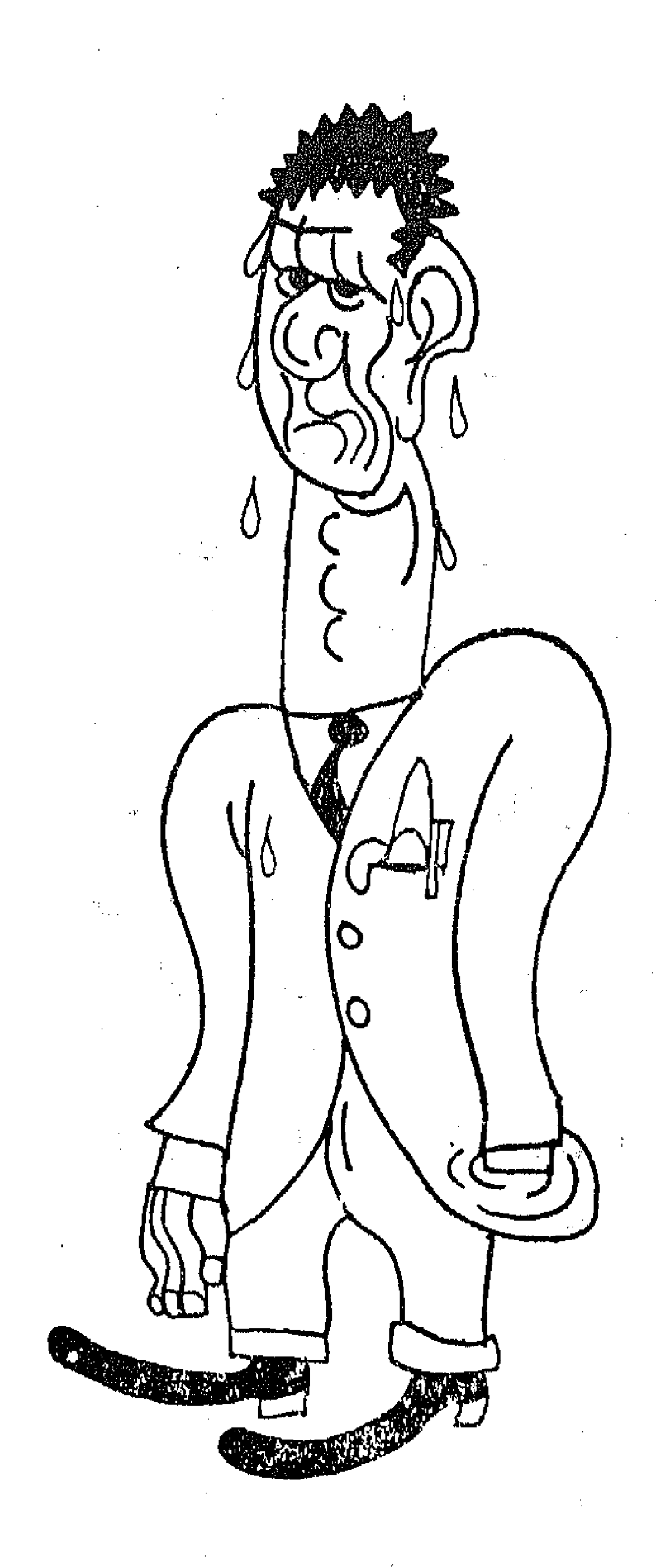


لسانه سليط، وملامحه مثل لسانه... الفم مفتوح الشدقين، متهيىء دائمًا للقذف بكلمة وقحة أو ابتسامة جارحة... تحس وهو يشرب أو يأكل.. أنه لا يرشف الماء ولكن يشتمه... ولا يمضغ الطعام ولكن يلعنه!



أذناه تتدليان فى ذلة، جبينه مكسور، وأنفه مرغم!

تتعقبك نظراته فى إلحاح، أشبه بالنباح!



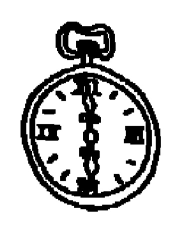
أعضاء جسمه شاذة متنافرة. فاليدان طويلتان، والساقان قصيرتان والعنق مستدير، والرأس مستطيل وإحدى كتفيه متواضعة... والأخرى متكبرة!

وهبه الله أسلوبًا عذبًا فى التعبير عن الصدق والكذب، والخير والشر، والأذى... والندم على الأذى!

يتصبب عرقًا صيفًا وشتاء، إذا تحرك يعرق، وإذا استراح يعرق، وإذا تكلم يعرق، وعندما يهزه الحزن لا تفيض جفونه بالدموع. ولكن تفيض بالعرق!

كنت أعرف أن الخلق مرتبط بالسلوك، ولكن خبرتى له علمتنى أنه من الممكن أن يكون الخلق شيئاً، والسلوك شيئًا آخر. فخلقه طيب، وسلوكه سيىء... قلبه أبيض، وتصرفاته سوداء!

حيرنى معه... أحبّ أن أكرهه، وأكره أن أحبه.



فى مشاعرى همس جديد، لذيذ، غامض... أحاول أن أتبينه فتحجبه عنى ثرثرة التجارب، وفضول الذكريات!

هل هو حب؟ هل هو نزوة؟

إننى مشدود من قلبى وعقلى إليها، إلى جمالها العبقرى، وأنوثتها الذكية، وملامحها الموهوبة المثقفة!

قالت لى إنها تثق بى فى كل شىء إلا عندما أتحدث عنها.

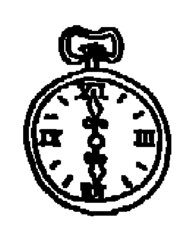
وسألتها: لماذا؟

قالت: لأنك تجاملنى على حساب الواقع...

قلت: أخشى أن تتهمينى بالمبالغة إذا قلت إنى أجامل الواقع على حسابك!

قالت: هذا خيال...

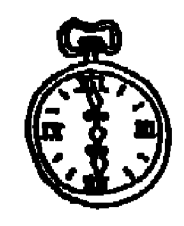
قلت: بل هذه حقيقة، وما تظنينه خيالا أو مبالغة.. ليس إلا حرارة، لأنى أعبر عن الحقيقة بأسلوب دافئ!



كنت وأنا فى طريق إلى غرفتها بالمستشفى لا أمشى، ولكن أبحث بخطواتى عن قدمى! ظللت أقرع الباب بظهر يدى ولم أسمع من يقول لى ادخل... ثم اتضح أن يدى لم تمتد إلى الباب، فقد كنت أقرع حائط الغرفة المجاورة!!

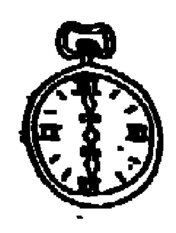
ورأيتها فى فراشها، لم أتبين ملامحها، فقد اختفى وجهها فى غلالة سميكة من الشحوب... حاولت أن تتماسك. ابتسمت ولكن ليست هذه ابتسامتها التى أعرفها!

إنها ابتسامة حزينة باكية تنحدر من شفتيها... كالدموع!



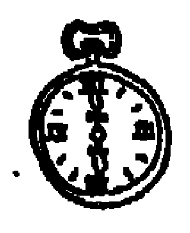
عجوز، أشرف على المائة.. ملامحه رصينة وعيناه فى ذهول. ظل طول عمره يمارس مهنته التى عاش عليها، سن السكاكين، وهو الآن لا يستطيع أن يمارس شيئاً

إلا الشيخوخة والمرض... إنه الدائن الوحيد الى أسعى إليه وأعطيه حقه... كلما رأيته رأيت غدى... فأفزع، وأحس أن قلبي لا يخفق فى ضلوعى... وإنما هو يحفر ضلوعى!

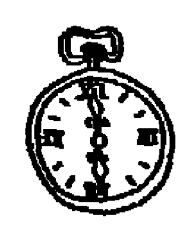


كلما ضاع مني صديق أبكى عليه كما لو كان قد فارق الحياة، وأدفنه فى قلبي!

وضعت اليوم يدى على صدرى فخيل لى أنه مقبرة تضم مئات من الأضرحة!

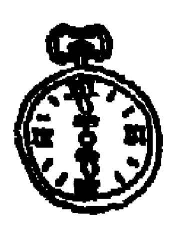


هناك جمال يشتهيك وجمال تشتهيه... لم أعرف إلا لونًا واحدًا من الجمال... ولم يبق فى عمرى ما يسمح لى بأن أعرف اللون الآخر!!



كل ما فيه مستريح... أهدابه نائمة فوق عينيه... يداه ممدودتان على ساقيه فى ارتخاء... ملابسه متسعة... إنه لا يرتديها ولكن تلتف حوله... ضحكته لا تنطلق من فمه ولكن تتهدل كخصلات شعر طويل ناعم... ألفاظه تتثاءب فى فمه وتنام فى أذنيك.

هذا الإنسان المستريح كلما التقيت به شعرت بتعب شديد. !!



أستطيع أن أعانى الشقاء والعذاب والمرض... ليس فى الدنيا ما أفزع منه إلا اللحظة التى أعانى فيها سكرات الموت... أو سكرات الحياة.



عرفت منذ ثلاثين عامًا... شاعرًا شـابًا، خـواطره ذكيـة مشرقة... ووجهه غبى الملامح... ممتقع اللون!

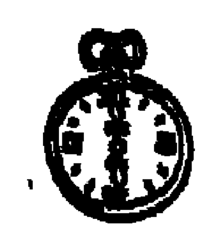
وكان يغيب عنى فترات من الـزمن، فـإذا التقيـت بـه أدهشنى أنه يزداد على مر الأيام قوة ونضارة..

وقابلته اليوم، فخيل لى وأنا أصـافحه أنـه ليس هـو... إن عمره الذى تجاوز الخمسين قد اختبأ فى قوام شاب رياضى مفتول العضلات... الملامح الغبيـة صـارت ذكيـة، واللـون الممتقع من السقم أصبح كحمرة الخجل!

وقلت له: أنت ابن فلان؟

فضحك وقال: أنا فلان نفسه!

ما أعجب صديق... إنـه مثـل الأجـل... يـكبر، فيصغر!

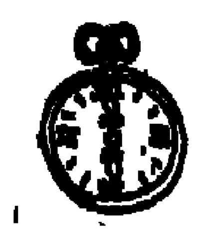


البحر يهدر فى عصبية وصخب... وكانت تتمدد على الشاطىء، وتتقلب فوق الرمال فى كسل لذيذ... وقد كست قوامها الرشيق بالجاذبية، وعرته بالمايوه!

قالت لى: لقد اشتقت إلى البحر، أريد أن أستحم، ولكنى أخشى الأمواج وهى فى هذه الحالة... إنها غدارة!

وسألتنى: هل هناك ما هو أشد غدرًا من البحر؟

وقلت: نعم... بعض الرجال... وكل النساء!



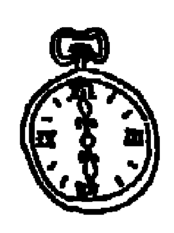
من يدرى؟ لعل ربى رحمنى إذ أراد لحبى هذا المصير!

ولكنى أطمع فى رحمة الله، وفى عدالته معًا... أليس من العدالة وقد أقصانى عنها، أن يقصيها عنى؟

إنها فى مكانها النائى البعيد... وبرغم ذلك فهى

معى... أغمض عينى فأراها. أصم أذنى فأسمعها... وأشعر بها تنطلق، وتجرى وتعدو فى رأسى كما لو كان رأسى شارعًا خاليًا من الناس، ومن إشارات المرور!

إنها تحتل قلبى، وتتصرف فيه كما لو كان بيتها... تكنسه، وتمسحه، وتعيد ترتيب الأثاث... وتقابل فيه كل الناس... شخص واحد تهرب من لقائه... صاحب البيت!!



رأسه أصلع، عيناه زائغتان، أنفاسه لاهثة، يسيطر القلق على كتاباته، وقراءاته، وضربات قلبه!

يحمل من الهموم ما يرفع سنه إلى الستين مع أنه لم يصل بعد إلى الثلاثين!

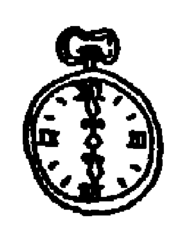
إنه واحد من كثيرين جدًّا بذلوا محاولات سيئة الحظ لخلق أشكال جديدة للشعر العربى، ولم تنجح هذه المحاولات، لأنها كلها متشابهة!

منح نفسه الحرية فى استخدام الأوزان والتفاعيل فى كل ما يخطر له من موضوع، أو لفظ أو معنى!

قال لى إن قلبه يخفق بغير قاعدة.. أحيانًا يسرع فى ضرباته، وأحيانًا يبطىء فى ضرباته.. وأن هذه ظاهرة تزعجه، وتثير فى نفسه الشعور، بأنه يوشك أن يموت...

وقلت له إن قلبك مثل شعر الذين قلدوك.. يتحرر من الوزن والتفعيلات... وإذا كان هناك من يزعجه هذا التصرف ويرى فيه علامة الموت، فلا ينبغى لك ذلك لأنك شاعر متمرد على القواعد!

ليس هذا رأيًا فى الشعر المتجرد من الموسيقى والإيقاع والتعبير، وإنما هو رأى فى القلب الذى يتمرد على طبيعته الموسيقية... فيضطرب فى ضرباته وخفقاته بلا ضرورة، بلا دافع، بلا غاية!



عبثًا حاولت أن أفكر فيها وحدى!

كانت آلامى معى دائمًا. سكينًا تمزق أحشائى، سوطًا يلهب مشاعرى، يدًا تضغط دمى، وتخنق أنفاسى!

- وأمس فكرت فيها دون أن أتألم. إنها لم تعد جديرة بألمى... كانت عظيمة وجميلة فارتفعت إلى ذروة آلامى، وقد أصبحت الآن جميلة فقط. فانحدرت إلى هاوية يتعفف عنها الألم!!

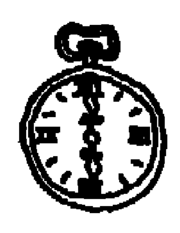
ولكن ما هذا الذى أحسه؟ لعله حيرة، لعله غيظ، لعله اشمئزاز... أم ترانى عفوت عنها فلم أعد أحبها؟ كلا... فما زلت ألاحقها بحبى... إن الحب مثل القانون: يحمى البرىء ويتعقب المجرم... وقد كان حبى يحميها فأصبح يتعقبها!!

تعالى... لا تخافى أن تذكرينى بالماضى... إننى عندما أراك لا أغوص فى أيام ذهبت، ولكن أتسلق ما بقى لى من أيام!!

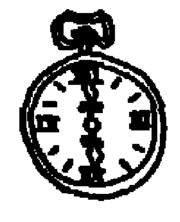
ليس فى حياتنا، ماض وحاضر ومستقبل... حياتنا فترة واحدة هى الماضى...

الأمس مضى. واليوم يمضى. والغد سيمضى...

تعالى ولا تترددى... فلم يبق من عمرى ما يسمح بأن تترددى!!



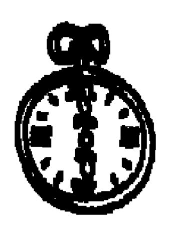
اتحداك بحبى أن تكرهينى... فى استطاعتك أن تدمرى حياتى، ولكنك لن تستطيعى أن تخرجى من حياتى!!



حسبى أن أعرف من دنياى حقيقة واحدة، حقيقة الدمعة والابتسامة، ولكن كيف أعرف هذه الحقيقة؟ إن الدموع

والابتسامات ليست حقائق، ولكنها لغات لا يحسن ترجمتها إلا القلوب...

إن قلبي في هذه الأيام ضعيف في اللغات إلى درجة تثير حيرتي...



ليس الفن أن تنقل الأحداث كما هي... ولكن الفن هو الانفعال بالأحداث، والتعبير عنها بشعورك الذاتي... والفن الواقعي، هو إعادة بناء الواقع بخيال شديد!!

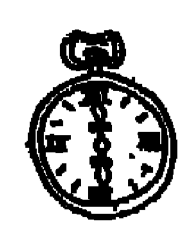


يا رب لا تعاقبها بذنبها... ولكن عاقبها بذنوبي... فليس لي ذنوب!!

بعد فراق خمس سنوات التقيت بها... ظننت يومًا أنى نسيتها، فلم أكد أراها حتى وجدتنى نسيت نفسى!

شعرت بخوف لذيذ وأنا أصافحها... كانت لحظات الكلام عذبة. ولحظات الصمت أكثر عذوبة!

وذهبت إلى فراشى وحاولت أن أنام لأعثر على حلم جميل... وعشت أجمل أحلامى... ولكنى لم أنم!

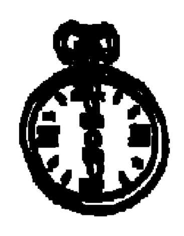


النيل ساحر. والليل كالنيل... لا أحد فى الطريق إلا المصابيح، والمقاعد المنتشرة على الكورنيش، والعمارات العريضة الطويلة، وعسكرى الدورية، وأنا...

وخرج من شارع جانبى إنسان وجهه باهت كالح، يرتدى بدلة هى الأخرى باهتة كالحة... ولم يكد يرانى حتى صافحنى بحرارة وصافحته بذعر! إنه يعرفنى ولا أعرفه... كان إذا تكلم يشمر عن شفتيه الطويلتين كأكمام جاكتة!



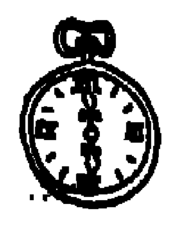
وسألنى. ألا تذكرنى؟... وأردت أن أتخلص منه فقلت له: اعذرنى فقد فقدت ذاكرتى... وتركنى وهو يضرب إحدى كفيه بالأخرى، وأخذ يصيح بصوت ضارع: لا حول ولا قوة إلا بالله!



أمضيت يومى كله وحدى... أردت أن أجرب هل يستطيع الإنسان أن يعيش بلا ناس؟!

قرأت كتابًا، وسمعت أغانى، وموسيقى، ولكنى لم أتصل بأحد، ولم يتصل بى أحد... خيل لى وأنا هكذا وحدى، أنى مريض أتولى بنفسى، زيارة نفسى!

ولم أشأ أن أثقل على المريض بالزيارة الطويلة... فغادرت البيت، واختلطت بالناس!



قالت لى: أنت فى قمة الحب هذه الأيام... البرد لاذع، والجو يهدر ويتلاطم كموج من صقيع... وأنت تحب البرد، والموج، والصقيع!

ووضعت كلتا يدى على ركبتى، وأخذت الحنى على نفسى، وأنكمش وأزعق، حتى لا تسمع صياح فرائصى وهى ترتعد!

وقلت: إنى أحب الشتاء فعلا.

- إن ما يريحك يعذبنى... فأنا أكره هذا الشتاء الذى تحبه.

قلت: إن الحب كالقدر. أحيانًا يمنحنى الراحة، وأحيانًا يتعقبنى بالعذاب... ولا حيلة لى فى أن أهرب منه إذا عذبنى.

هل تستطيعين أنت أن تهربى من القدر؟

- ولم لا؟

قلت : أنا شخصيًا لا أستطيع أن أهرب من قدرى. . .

من حبى. إذا فقدت الحب حقيقة. وجدته ذكرى!

ـ أنا أحدثك عن الشتاء، وأنت تحدثنى عن الحب!

قلت : إن الشتاء، بالنسبة لى. حب نابض حارّ، يلسع مشاعرى. ويثير نشوتى، فتبدو لى الحياة كلها ضحكة عالية مرحة، فكرة عميقة واضحة، قطعة موسيقية، قصيدة شعر. شبابًا متجددًا، فتاة حلوة جذابة فى العشرين، وأنا مثلها فى. . العشرين!

إنى أحب شمس الشتاء التى تختبىء فى الغيوم، فإذا ظهرت لحظات. . بادرت السماء فردتها إلى المخبأ بصيحات الرعد، ووميض البرق، ودموع المطر. . .

أحب نهار الشتاء العريان إلا من الضباب. . . أحب ليله يتدثر بالمعاطف، والأردية، الثقيلة، أو يقتحم السهرات الهادئة والصاخبة. . يأكل بنهم، ويشرب بنهم، ويمرغ وجهه، ويديه وساقيه، على لهب المدافىء!

ـ أما زال هذا شعورك بالشتاء؟

قلت : كان هذا هو شعورى به طوال عمرى!!

ـ والآن . ؟

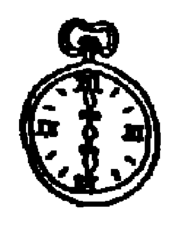
ـ قلت : يخيل لى أنى لم أعد جديرًا بحب الشتاء !

ـ لقد أصبحت إذن لا تقوى على البرد مثلنا ؟

ـ قلت أو على الأصح، قالت فرائصى المرتعدة - . . نعم !

ـ وكيف راح حب الشتاء الذى زعمت أنه قدر؟! هل عرفت كيف تهرب منه ؟!

قلت : لم أهرب منه . . . وإنما هو الذى هرب منى . . . هرب من سنى !!



رقيق، ذكى، عالم، يؤمن بالله والقيم، والإنسانية . . .

افترقنا سنوات. وزارنى بغتة، ولم أكد أراه حتى ضممته إلى صدرى فى شوق وحنان، وقابلنى بفتور، صافحنى بيد نائمة كضمير ظالم . . . وحيانى بابتسامة خافتة كصوت مبحوح !.

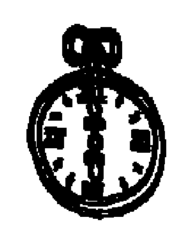
وبعد ما أمضينا معًا بضع ساعات خيل لى أنه شخص

آخر.. لقد أصبحت رقته ضراوة، وصار ذكاؤه خبثًا. وتخلت عنه ثقافته، واستحال إيمانه بالله، والقيم، والإنسانية، إلى سخط جارف على الحياة!

وعرفت مأساته. إنه يعانى حالة نفسية وبيلة، لقد أخبره الأطباء أنه لا ينتمى إلى أحد الجنسين... وأنه لا بد من إجراء جراحة تحوله من رجل إلى امرأة، أو تحوله من امرأة إلى رجل.. فهو يحقد على الرجال لأنه ليس منهم، ويحقد على النساء لأنه ليس منهن!

وقد جعلته مأساته ينقلب فى سلوكه من إنسان مثالى يعيش فى مجتمع، إلى وحش مفترس يعيش فى غابة!

ولم أحاول أن ألومه، أو ألعنه، أو أنقم عليه، فإن مأساته الرهيبة تحميه من اللوم، واللعنة، والنقمة.



دخل بيتى زائرًا، يتكلم دقائق، ويسكت ساعات، يبدى بعض الإشارات فى أوقات متفرقة، ويمتنع بعد ذلك عن أية إشارة!.

ولكن من يشاركوننى البيت حولوه من زائر إلى صاحب بيت.. فهم يجلسون معه أكثر مما يجلسون معى! ويلتفون حوله، يستمعون إليه، ويتأملونه، فى لذة وشغف، فإذا امتنع عن الكلام أو الحركة، قلبوه بين أيديهم، ودلكوا له ظهره، وصدره، وتحسسوا أصابعه: أو استدعوا له أخصائيًا، ولا يزالون به حتى يسترد أنفاسه، ثم يعودون إلى الإصغاء إليه، والتأمل فيه!

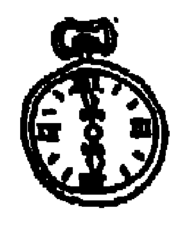
هذا هو جهاز التليفزيون الذى يظل مفتوحًا فى بيتى خلال فترات الإرسال، وما أكثرها، والويل لى ممن يسكنون معى، إذا أنا حاولت أن أغلقه!

ولا شك أن للتليفزيون إغراء لا يستطيع مقاومته من

عندهم وقت يسمح لهم بأن يقعوا تحت سيطرة الإغراء. ومن سوء حظى أن كل من فى البيت ليس لهم وقت حتى يحتفظوا به، أو يضيعوه!

والراديو مازال حتى الآن يغرى أمثالى بالإقبال عليه، ولكن الفرق بين الراديو والتليفزيون، هو أن الراديو سيدة محجبة تخاطبك بلباقة، ولا تراها...

أما التليفزيون فإنه سيدة تحررت من الحجاب وهى تتحدث إليك بلباقة ورشاقة، وإذا لم تقنعك لباقتها... أقنعتك رشاقتها!



إلى أين يقودنى الجمال؟ وهل الناس جميعًا مثلى... يعذبهم إذا رأوه ويعذبهم إذا احتجب عنهم؟

كم أعانى من انفعالاتى به، إنما تثير فى نفسى القلق، والريبة والرعشة ولكم ألهبتنى هذه الانفعالات وأضرمت النار فى دمى ونبضى، وما حاولت يومًا أن أفر منها، فهى مثل

الحياة تشقينا، ولكنا نحرص عليها، ونتشبّث بها. نمارسها لنحيا، ونحيا لنمارسها!

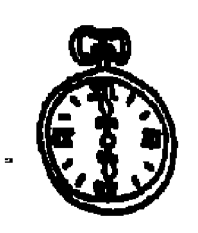
إننى أحب الجمال ولو تحول إلى خنجر يسكن ضلوعى، يجول فيها، ويتلوى، ويقفز! أحبه فى فكرة، كلمة، لوحة، نظرة، إشارة، شروق، ضباب، حقيقة، خيال، بحر هائج، نهر وديع، رياح عنيفة، نسيم ضعيف، نغمة تنساب من حنجرة، أو آلة موسيقية، أو كعب حذاء!

ولا تدهش... فقد اهتز كيانى، وأنا أسمع صوت حذاء عال يمر بجانبى، ووجدتنى بغير إرادة، أتجه إليه بكلتا عينى... كان يضم قدمين صغيرتين، تمهدان لساقين رشيقتين تعرتا بجورب من الحرير... يعلوهما قوام يتثنى بخفة فى فستان يتحدى برد الشتاء... وقد برز من القوام صدر جذّاب يعلو ويهبط فى خفوت كبقايا موجة، أو ضوء شمعة تعرضت لنسمة عابرة... وقد بدا على الصدر عقد اللؤلؤ، وضج فيه نهدان متمردان! وأطل فوقه عنق حلو ممشوق يحسن التعبير عن لفتاته بسحر ولباقة... واستسلم العنق لوجه باهر القسمات، اكتسى بحمرة الورد، وبياض المرمر... العينان زرقاوان ترفرف

عليها أهداب سوداء، والخدان ينبضان بالحرارة كقبلة الفراق! والأنف دقيق ينسحب إلى الشفتين في كبرياء. والفم مليء... بالرقة! والأذنان الرقيقتان، انسدلت عليها خصلات الشعر الناعم الأصفر لتغطي الأذنين وتحجب عنها صيحات الإعجاب!

واختارت الفتاة إحدى الموائد، وجلست، وانتقلنا إليها بنظراتنا وأنفاسنا. كان فوق المائدة مصباح التف بغلالة زرقاء، إنه لا يرسل أشعته في صمت كهذا المصباح الجاثم فوق مائدتنا.. إن أضواءه تكاد تصرخ، وتعربد... فالنور المنبعث منه يتمايل، ويترنح!!

كانت وحدها.. هكذا رأيناها عندما مشت أمامنا، وعندما جلست بالقرب منا... وكنا سمعنا صوتها. هل تحدث نفسها؟ وكيف؟ ورمقنا مائدتها بأعيننا، فوجدنا معها شخصًا... ولم نعترف بوجوده، فحيث يكون الجمال، لا نستطيع أن نعترف بغير الجمال!



سألنى : ألا تزال تحب ؟

قلت : ربما . . .

ـ ألا تعترف أنك لم تظفر من الحب إلا بالعذاب ؟!

قلت : وما هو الحب ؟

ـ التقاء عاطفة بعاطفة .

قلت : إن هذا الالتقاء هو عود الثقاب الذي يشعل نار الحب فإذا اشتعلت النار التهمت الالتقاء، والتهمت أيضًا عود الثقاب !

ـ قل لى أنت . . . ما هو الحب ؟

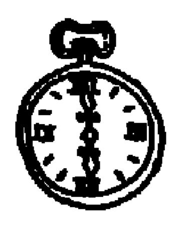
قلت . . الحب أن تتعذب بمن تحب، أو يعذّبك من تحب !

ـ وإلى متى تتعذب وحدك ولا تفرض العذاب على سواك ؟!

قلت : أنا فى العذاب أنانى . . . أستأثر به لنفسى ! .

ـ ما أسعدها !

قلت : بل ما أشقاها وما أشقانى.. فقد يصحو ضميرها ذات يوم فتعانى عذابى، وتتركنى وحدى بلا عذاب !

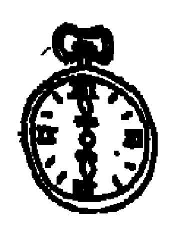


وبعد دقائق يلتف عقربا الساعة وينقض أحدهما على الآخر، ويعلنان انتهاء عام، وابتداء عام...

انتظرى يا عقارب الثوانى، والدقائق والساعات... تريثى، قفى... فأنا لم أستعد بعد للرحيل معك.

كل الناس فى هذه اللحظات ينتقلون من سنة إلى سنة على جسر من القبلات... وليس لى جسر أعبر عليه !!

إنى أحس وأنا أقفز من شاطىء السنة القديمة إلى شاطىء السنة الجديدة، بلا قبلة، بلا ابتسامة، أنى لا أتحرك، ولا أقفز، ولكنى أتهاوى، وأتدحرج، وأسقط فى نهر الزمن !



التقينا وكنت أحسب أننا لن نلتق أبـدًا... ونسـيت كل شيء إلا أن أحبها، ونسيت هى كل شيء إلا أنها لا تحبنى!

وسألتنى: أين كنت ليلة أمس؟

قلت: كنت معك!

وانطلقت منها ضحكة عالية كاذبة... كعواطفها!!

وقالت: أنا لم أقابلك من ثلاثة أشهر!

قلت: وأنا قابلتك كثيرًا خلال هذه الفترة... وقد كنت معك ليلة أمس بالذات... صافحتك. لثمت يدك، ضممتك إلى صدرى!

ـ ماذا تقول؟!

قلت: أقول الصدق.

ولكنى لم ألتق بك أمس قطعًا!!

قلت: وهل التقيت بى اليوم؟

ـ طبعًا.

قلت : أنت ما التقيت بى فى أى يوم... إن اللقاء ليس فى أن نجتمع فى مكان واحد... ولكن اللقاء هو أن ننفعل بشعور واحد! وشعورى الذى انفعلت به منذ سنوات لم يتخل عنى، ولم أتخل عنه فى أية لحظة!

- هه!

قلت : ألا تثقين بما أقول؟!

- أنا واثقة من أنك كنت تجلس أمس فى هذا المكان مع فتاة تحدق بعينيك فى وجهها، وتصغى إليها باهتمام!

قلت : أنا أفتح عينى بجسارة على ما لا يبهرنى!!

- وما يبهرك... ألا تنظر إليه؟!

قلت : لا أجرؤ على أن أحدق فيه.

- وما الذى لا تجرؤ على التحديق فيه؟

قلت : الجمال الخارق... والشمس الساطعة.

- ولماذا تغطى عينيك الآن بهذه النظارة الغامقة؟

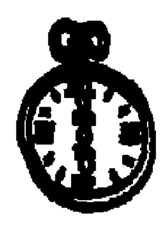
- قلت : الشمس ساطعة!

- أين الشمس... ونحن فى منتصف الليل؟

قلت : الشمس... فى حقيبتك!

ـ ليس فى حقيبتى إلا منـديل، وعلبـة بـودرة، ومفتـاح، ومرآة !!

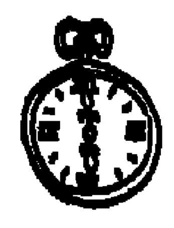
قلت : انظرى فى المرآة !



يا قدرى الشقى. . .

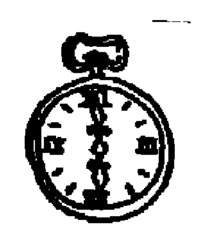
يا حبى. . .

متى تيأس منى، فلا تطاردنى، ولا تغرينى بأن أطاردك ؟!



أصبح النوم كالحب. . .

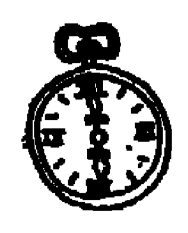
أريده ولا أقوى عليه !



لم تخدعينى... أنا الذى خدعتك... أوهمتك أنى أصدق انفعالاتك. كلماتك، دموعك، ابتساماتك. مع أننى كنت مؤمنًا بأن كل ما فيك كاذب. إلا القوام الذى يذوب رقة ورشاقة، والوجه الجميل المرصع بملامح أشبه بفكرة خارقة، أو نجم ساطع!!

واليوم تجلت لى حقيقة أخجلت ذكائى... فأنا لم أخدعك وحدك... ولكن خدعتك، وخدعت نفسى!!

لقد نظرت إليك بعد ما انتهت فترة الحب والحماقة، فوجدتك جسدًا بلا قوام، ووجهًا بلا ملامح!!



سألنى لماذا ترهق نفسك بالانفعال العاطفى والانفعال الذهنى ؟

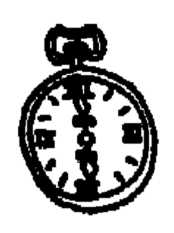
ـ لأن الانفعال هو الجو الطبيعى الذى نستطيع فيه أن نبحث عن علاقتنا بالحياة، وعلاقة الحياة بنا؟

قال: وإلى متى نظل نبحث عن هذه الحقيقة؟

ـ حتى نجدها!

قال: ومتى نجدها؟

ـ عندما نموت!!



كنت إلى عهد قريب مولعًا بالتردد على حديقة الحيوان، وكلما رأيت الأسد فى قفصه الكبير شعرت بحسرة شديدة عليه!!

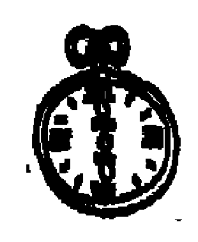
إنه هنا يجد طعامه، وراحته، ومأواه.

يعتنى به حارس، ومدرب، وطبيب. ولكنك تحس أنه ليس أسدًا، وإنما هو ذكرى أسد.. زئيره أنين، وأنيابه أسنان، ومخالبه أظافر!!

لقد فقد طبيعته في إشاعة الرعب منه، والإعجاب به، والتحدث عنه... ولن يجد هذه الطبيعة إلا في الغابة...!

• والفن مثل الأسد، ينبغي ألا نحبسه في أقفاص من المذاهب، والنظريات والتوجيهات. بل يجب أن نتركه في غابته ينطلق على طبيعته، لنشعر به. نشعر بخطره وقوّته وقدرته على أن يثير فينا الدهشة، والنشوة والاستعداد لمقاومة الأخطاء والأخطار...

إذا حبسنا الفن، ومنعناه من انطلاقه، فإنه سيصبح موعظة ربما كانت حسنة، ولكنها لاتجدى!!

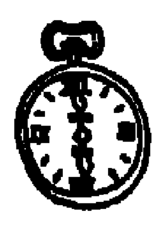


تبينت الليلة أن ساعتي ما زالت تسير حسب التوقيت الصيفي... فعندما قدمتها ساعة في الصيف، شعرت بأني استدنت من النهار ساعة، وفرحت كعادتي كلما أستدين!

ولما أعلنت الدولة عن انتهاء التوقيت الصيفي، خيل لي

انى مطالب بتأدية الدين.. فماطلت كعادتى أيضًا فى تأدية الديون، وأبقيت الساعة، كما هى!!

وأنا أكتب هذه السطور، وعقارب ساعتى تشير إلى التاسعة والنصف، وراديو القاهرة يذيع نشرة أخبار الساعة الثامنة والنصف!!



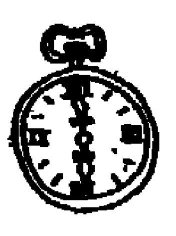
هذا الشارع، كم أثار خوفى، كنت أشعر وأنا أسير فيه أنى أمشى على جثتى! فتنتابنى رعشة تشدنى من رأسى إلى قدمى... أحس أن شعر رأسى دبابيس، وعرق ماء يغلى... أنفاسى مبهورة من الفزع، وخطواتى مثل أنفاسى!

ومنذ أيام اخترقت الشارع بقدمين تنبضان بالطمأنينة والثقة. أعصابى هادئة، هواجسى مسترخية، وخيالى كسول!...

لم يعد فى الشارع ما يخيفنى أو يفزعنى. كان لى فيه حب حطمنى، مزقنى، ذبحنى... حاولت أن أنساه ولكنه كان

يتعقبنى ولا يريد أن ينسانى!.

ونسينى حبى... نسى أن يتعقبنى، أيها النسيان ما أرحمك... لولاك ما استطعت أن أحيا!



امتدت السهرة إلى منتصف الليل، أكل المدعوون وملأوا بطونهم وأخذوا يتثاءبون، وإذا السهرة كلها تتثاءب!..

وبغتة اهتز البهو الكبير وارتعدت مقاعده التى يشغلها عدد من الناس، فيهم الشاب والكهل، وسيدتان حائرتان بسنّيهما بين الشباب، وادعاء الشباب!

واتجهت أنظارهم جميعًا إلى عشرين عامًا. ترتدى فستانًا أزرق.. وقد تشبث الفستان بقوام رشاقته حملت العدوى إلى مشاعرنا، ونظراتنا، وإشارات أيدينا... إنه لا يتحرك.. ولكنه ينبض كقلب خائف... يعلوه وجه اطمأنت قسماته... الفم أحمر كالورد...تفتحه كلمة، وتغلقه ابتسامة... الخدان ملتهبان كحريق... أنفها صغير كسنّها... وشعرها كليل

الشتاء أسود وطويل والعينان فى لون الفستان... زرقاوان!

ولم تكد تأخذ مكانها فى البهو، حتى ارتفعت أصوات المقاعد وهى تزحف لتقترب منها...

وكنت أجلس إلى جوارها، فمالت على أذنى وهمست: هذه الحركات تزعجنى...

قلت: هل تزعجك عدسات التصوير؟

ـ لا... طبعًا.

قلت: إنهم يحاولون أن يلتقطوا لك بعدسات عيونهم صورة يحتفظون بها فى قلوبهم... فلا تنزعجى منهم!

ـ أنت إنسان مهذب، ولهذا لم تحاول أن ترتكب مثل هذه الحماقات...

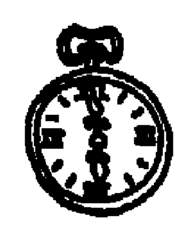
قلت: لقد سبقتهم إلى هذه المحاولة... عندما لقيتك منذ شهرين... ألا تذكرين؟

ـ ذاكرتى ضعيفة.

قلت: وقلبك؟

ـ قلبى قوى... وضحكت.. ثم سألتنى: وأنت؟

قلت: أنا؟ ذاكرتى قوية... وقلبى ضعيف!



عندما رأيتها لم أعرفها... الملامح الحلوة. الصارخة بالدفء، والجاذبية والنضارة.. تحولت إلى رسم كاريكاتورى لعجوز شمطاء!

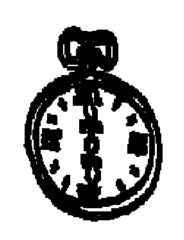
الشعر الأصفر اللامع، المتوهج أصبح حفنة من حشائش ذابلة، معفرة بتراب أبيض!!

الجسد الممشوق كالسيف انحنى على نفسه. وصار عصا ملتوية من طرفيها..

أهكذا يفعل بها الزمن، وهى ما تزال فى الأربعين؟

وعرفت ما جرى لها، ولم أستطع أن أخفى عنها دموعى وهى تنحدر ساخنة كعرق يتصبب من جبين شق... فقد ماتت ابنتها وثوب زفافها ينتظرها عند الخياطة...

ولم أسأل كيف ماتت؟ فلا أحد يملك الجواب عن سؤالى إلا القدر... وهو لا يسمع، ولا يتكلم!



سألنى : هل تؤمن بالصداقة ؟

ـ أومن بالحياة . . .

قال : أنا أسألك عن الصداقة لا عن الحياة . . .

ـ لا حياة بلا صداقة !

قال : أى أصدقائك أحب إليك : من يخدعك ؟ أو من يصارحك ؟

ـ من لا يتخلى عنى . . . حتى ولو خدعنى !

قال : ألم يسىء إليك أصدقاؤك الذين تعتز بهم ؟

ـ الصداقة تغفر الإساءة !

قال : من هم الأصدقاء الذين احتفظت بصداقتهم طول حياتك ؟

ـ لقد دخل حياتى صديقان ولن يخرجا منها . . . أحدهما أستريح إليه لأنه يخدعنى ، ولا يتخلى عنى !

قال : من هو ؟

ـ الأمل . . . أما الصديق الآخر فأنا أضيق به لأنه

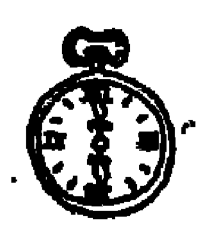
صريح، حاسم. يواجهنى بالحقيقة، ولو كان فيها دمارى...

قال: ومن هو؟

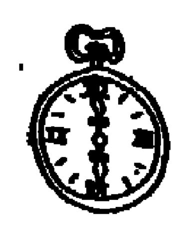
- اليأس !!

قال: إذن أنت تنفر من الصراحة، ويستهويك الخداع؟

أنا أحب أن أسمع الغناء، ولا أطيق أن أسمع دقات الساعة... واليأس ساعة مضبوطة تدق بصدق... أما الأمل فإنه صوت جميل يكذب... ويغنى !!



اذهبى. لا تعودى فلن أنتظرك أبدًا... ولكن لا تظلمينى. لا تتهمينى بأن تعبيرى عن حبى أهان رشاقتك.. فأنا لم أتعمد أن أهينك يومًا، كل ما حدث أنى - يا.. لغفلتى !! بدلا من أن أطوق خصرك بذراعى.. طوقته بقلبى!

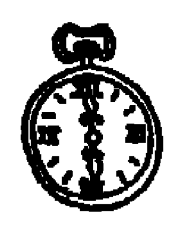


أيها الليل، يا حبيبي... ألم يعد لنا مكان نلتقى فيه إلا غرفة نومى ؟!

أين الشوارع، والملاهى، والفنادق ؟

أخرجنى من بيتى كما كنا نفعل أيام الشباب... واسهر معى حتى أرى أصدقاء عمرى... السحر، والفجر، والصباح !!

أيها الليل يا حبيبى... اترك عناء نومى للنهار !!



لا أحد معنا. هو يتكلم، وأنا أصغى، وباب المكتب مغلق، وتحركت « أكرة » الباب فهب من مقعده مذعورًا، وأخذ يصرخ بأعلى صوته : انتظرى... انتظرى... ستعرفين الحقيقة !!

وأصابنى ذهول... فلم يدخل الغرفة شخص آخر سوانا، وكل ما حدث أن ساعى المكتب فتح الباب.

وأطل منه، فلما سمع الصراخ، انصرف فورًا.

وظل الضيف ينتفض، وترتجف أطرافه بضع دقائق، فلما هدأ.. قال لى فى نبرة مستكينة: لاتؤاخذنى!

وضغطت الجرس أطلب الساعى ليحضر كوب ماء وحرك الساعى «أكرة» الباب، ومرة أخرى تحركت فى الضيف كل مشاعر الفزع. واستمر يصرخ ويصيح: انتظرى انتظرى... ستعرفين الحقيقة!

ثم عاد إلى هدوئه، وسألته عما إذا كان يعانى مرضًا عصبيًّا؟

فقال: أنا أعانى مرض «الأكرة»!! فمن خمس سنوات مضت خطبت إحدى زميلاتى فى الدراسة، واتفقنا على الزواج. ليتك عرفتها إذن... لغفرت لى حرقى عليها. إنها لوحة فنية رسمها الله بريشته... ذكية مثالية، رشيقة، جذابة.

وفى أحد الأيام رأتنى أسير فى الشارع مع بنت خالتى فظنت أنى أخون حبها. وكنت جالسًا فى مكتبى، وقد أغلقت

بابى، وإذ «الأكرة» تتحرك، وانفتح الباب، ودخلت خطيبتى، ورمت «دبلة الخطوبة» تحت قلمى... وخرجت غاضبة، وأخذت أصيح فيها: انتظرى... انتظرى... ستعرفين الحقيقة!

ولكنها لم تنتظر، وكان هذا آخر لقاء بينى وبينها. منذ هذا اليوم... كلما لمحت «أكرة» باب تتحرك، أرتجف وينتابنى ذعر، وأصرخ كالمجنون...

وسألته: وأين هى الآن؟

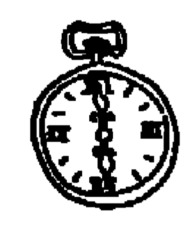
فقال: صارت زوجة وأمًّا.

وعدت أسأله: ألم تحاول أن تقنعها بالحقيقة؟

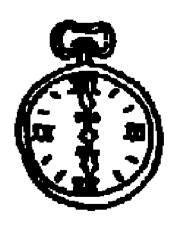
فقال: لا.

- ولماذا؟

قال: لسببين أحدهما أنه لا فائدة من إقناعها بعد فوات الوقت أما السبب الآخر.. فلأن من رأتها معى... لم تكن فعلا بنت خالتى.. ولا إحدى قريباتى!!



إلى متى تظلين وديعة متسامحة أيتها الجميلة البلهـاء؟ لماذا لا تنتقمين منى؟ أثأرى لنفسك... بادليني ما أشعر بـه... تعذبى بالشك.. تعـذبى بـاليقين... اســهرى... امســحى بشفتيك كل ابتساماتى!



قال لى : ماهى الحقيقة؟

ـ هى ما نبحث عنه ولا نجده، وإذا وجدناه فقدناه!

قال : أليست الحياة حقيقة؟

ـ ربما... ولكننا لا نكاد نجدها حتى يخطفها الموت منا!

قال : ألم تتعلم من تجاربك ما يستحق أن تنصحنى به؟

ـ تعلمت أن أتعلم...

قال : هل تعيش كل حياتك؟

- أنا نصف حى!

قال : أنت أحسن حالا منى، لأنى نصف ميت.. فأنا لا أعيش... ولكنى أموت فى سبيل أولادى وزوجتى!

- لا فرق بيننا يا صديق...

قال : هل أنت أيضًا متزوج ولك أولاد؟

- لا، ولكنى نصف حى... أى نصف ميت!

قال : كيف تكون نصف حى... ونصف ميت؟

- لعلك سمعت عن الشاعر المتنبى. لقد هجا إنسانًا أعور، فقال إنه نصف أعمى... وإن يفخر فهو نصف بصير! وأنا نصف ميت... وإذا تباهيت فأنا نصف حى!

قال : ما هو أملك فى الحياة؟!

- أن أجرى وراء الأمل... وأسأل عما لا يمكن الإجابة عنه.. من أسرار الطبيعة والنفس الإنسانية.. وأن أنقّب عن كل جديد ومجهول : أفكار، خيالات، إلهامات!

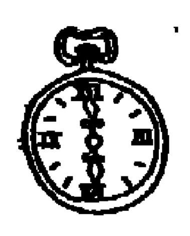
قال : ما هى الحياة؟

- حوار فنى رائع بين الخير والشر والليل والنهار، والأمل واليأس والعمل والتواكل، والهدوء والصخب، والعقل

والجنون، والشك واليقين، والجمال والانفعال بالجمال...

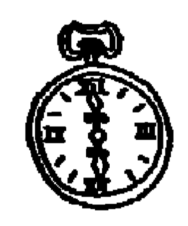
قال : هل تغير شعورك بالحياة؟

ـ تغير... كنت أريدها، فأصبحت أتمناها!

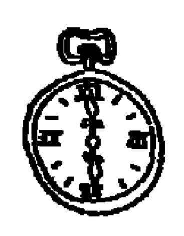


إن ضميرك ليس يقظان كما تتوهمين. وإنما هو يعاني الأرق.. إن اليقظة صحة وحياة، أما الأرق فإنه مرض وموت!!

اطمئني فسوف تستريحين من ضميرك، كما استرحت من قلبك، ومني!!



كانت تروح وتجيء أمامنا في خفة متزنة. ووقار يثير الإغراء. لم تكن تمشي ولكن كانت تسبح في غدير. وكان خيالي يسبح معها، وما زال يسبح إلى الآن!

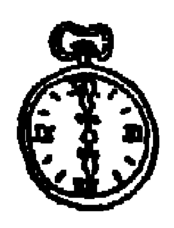


شعرت بنبض لذيذ فى قلبى، وفرحت... فقد صحا قلبى على حب جديد!

ولكنى لم ألبث أن عرفت الحقيقة فارتعدت مشاعرى!!

أيها القلب.. لقد فقدت ذاكرتك... إنها هى بجمالها وغدرها!

يا قلبى الأحمق... لا تتحرك فى أى اتجاه حتى لا تتعثر مرة أخرى فى نفس الطريق!



سألتنى: هل تحب الجمال؟

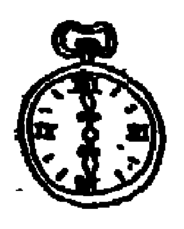
ـ إننى فيه!

قالت: أى أنواع الجمال أحب إليك؟

ـ الجمال الذى يكرهنى...

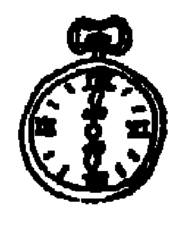
قالت : هل أنا جميلة ؟

ـ وأحبك !



أهدى إليها وردًا فى إحدى المناسبات، وبعد ساعات... دق جرس التليفون وسمع صوتًا يقول : أشكرك... لقد أسعدتنى !

ليس هذا صوتها... إنه صوت الورد !!



سألنى : ما الذى يجذبك إليها ؟

ـ شخصيتها الرقيقة العميقة، ذكاؤها، لباقتها، ملامحها الفاتنة، إشاراتها المعبرة كرقصة باليه... خطواتها الرشيقة التى تنطلق بتواضع وتتعثر فى كبرياء !

. . . وأطلق صديق ضحكة ساخرة عالية، ثم عاد إلى هدوئه وقال بلهجة خشنة غبية: إنني لا أرى أى شيء مما تراه.

- هل أعطيك عينيّ لترى بهما؟

قال: اقنعنى!

- لا يعنيني أن تقتنع أولا تقتنع. إن الجمال هو المنطق الوحيد الذى يقتنع به العقلاء بلا تردد!

قال: هل تعرف أنى مجنون؟

- لا أعرف!

قال: ألم تلتفت إلى نظرات عينيها؟ إنها نظرات لص!

- اللص الذى يسرق قلبى يضاعف رصيدى من العواطف النابضة... وهذا يسعدنى!.

قال: أنت مولع بالخيال الذى يعذبك ويقلقك، وقد أصبحنا يا صديق فى سن لا تسمح لنا بغير الراحة والهدوء...

- إذا تخلى القلق عن فكرى وقلبى، فقد تخلت عنى

الحياة... إن الموتى وحدهم هم الذين لا يقلقون!.

قال: هذا كلام يتنافى مع الواقع، فأنا واحد من الأحياء، ومع ذلك... فإنى لا أشعر بقلق على الإطلاق.

- أنت لا تعيش الحياة... أنت تتفرج عليها فقط!

قال: اسمح لى أن أقول لك بصراحة إنك واهم.. فأنت لم تعد قادرًا على الحب!..

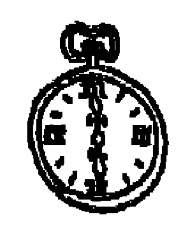
- ربما... ولكن ما أقرب الشبه بين الحب الوهمى، والحب الحقيق، إن كليهما يقوم على الخداع... عندما نتوهم أننا نحب.. نخدع أنفسنا، وعندما نحب يخدعنا الطرف الآخر!

قال: إن الحب لم يجذبك إليها، ولكنْ شىء آخر...

- ما هو؟

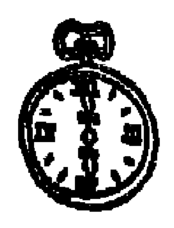
قال: سنها.. فهى فى العشرين من عمرها!

- إنها فى العشرين من عمرها وفى العشرين من عمرى!

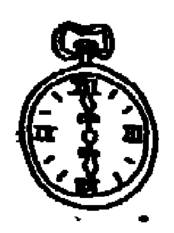


هل ألعنها أو ألعن الزمن؟!

كانت تتخطفها الأعين، فصارت تتخطفها الأيدى!!



إن إيمانى بك يساربى.. يدفعنى أحيانًا إلى ارتكاب الخطايا!! فأنا أقدس صفاتك... أحرص على أن آخذ نصيبى منها... ومن صفاتك العفو والمغفرة، وإذا لم أرتكب ذنبًا.. فإنى لم أصنع شيئًا لكى تعفو عنى... وتغفر لى!!



ارحمينى بقسوتك... إن رقتك تجذبنى إليك، وما أشد عذابى من هذه الجاذبية!!

قال لى : ماذا تصنع إذا غدر بك صديق ؟

- أتألم !

قال : ألا تكرهه ؟

- لا !!

قال : كيف تتألم من شىء.. ولا تكرهه ؟

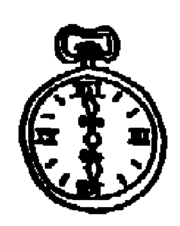
- ألا تتألم من الحياة ؟

قال : جدًّا.

- هل تكرهها ؟ هل تريد أن تتخلص منها ؟

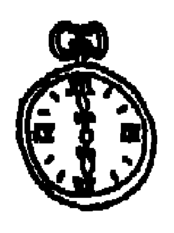
قال : الحقيقة أنى أتألم من حياتى ولكنى أتشبث بها !

- الصداقة كالحياة.. نتألم منها... ونحبها !!



لا تختنقى عنى، فلست عدوًّا حتى تتهيبى لقائى، ولم أعد ذلك العاشق الذى تجدين راحتك فى أن تعذبيه بالهجر، والقلق !... وإنما أنا شاعر، وأنت ملهمة، وكلما رأيتك

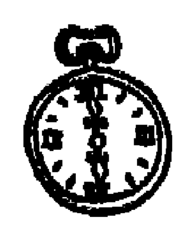
حلقت فى آفاق جديدة من الجاذبية، والرقة، والجمال، فأعبر عن مشاعرى بكلمات تنبض، وتضىء، وترتعش... لماذا تضنين على كلماتى، بالنبض.. والضوء، والرعشة؟؟



إننى أعانى تناقضًا رهيبًا فى حياتى. جسدى أرهقته الشيخوخة... ومشاعرى لم تتجاوز مرحلة الطفولة... وتفكيرى فى عنفوان الشباب!

ليتنى أستطيع أن أتخلص من شيخوخة الجسد، وطفولة المشاعر، وأحتفظ بالشباب فى جسدى، ومشاعرى.. وتفكيرى. فالحياة ليست هى الطفولة، وليست هى الشيخوخة قطعًا... إن الطفولة مثل الشيخوخة تعثر وطيبة، أما الشباب... فهو وحده الحياة. إنه الطيش، والانطلاق.

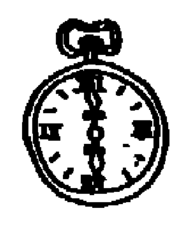
أريد أن أطيش... أريد أن أنطلق... أريد أن أحيا!



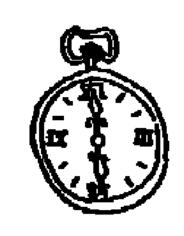
قالت لى : لماذا لا تنصحها بألا تهدر سمعتها، وتقتصد فى ممارسة نزواتها بهذه الطريقة التى تثير الاشمئزاز؟

- عندما حاولت أن أنصحها... كانت قد ألقت بنفسها.. من قمتها إلى الهاوية!!

.. من العبث أن أقول لها عودى.. فهى لن تسمعنى، ولو سمعتنى لعجزت عن العودة بعد ما انحدرت من القمة وأصبحت بين أحضان الفضاء... كل ما تستطيع أن أفعله، هو أن أصرخ وأبكى، ولقد صرخت، وبكيت!!



كلما انتابنى مرض... أحسست أنى قريب من الله، وفى هذه الأيام لا أشعر بأنى قريب من الله فقط، ولكن أشعر بأننى بين أحضانه!



قال لى : لقد طلقتها وأصبحت مثلك حرًّا.

- لست مثلى. فأنا لم أرتكب جريمة.

قال : وأية جريمة ارتكبتها أنا غير جريمة الزواج وقد كفرت عنها بالطلاق ؟ !

- الجريمة لا تمحو الجريمة... والطلاق جريمة !

قال : كيف تقول هذا ؟ ألم تنصحنى بألا أتزوج ؟

- نصحتك، لأن الزواج رسالة إنسانية لا ينبغى أن يتصدى لتأديتها إلا القادرون عليها، وأنا أعرف أنك لست من هؤلاء القادرين !

قال : وماذا أصنع الآن لكى أتخلص من آثار الجريمة ؟

- لا شىء إلا أن تواجه عذاب الضمير.

قال : لقد كان ضميرى يعذبنى عندما تزوجتها.

- ويجب أن تتعذب أكثر بعد ما تركتها، فالزواج على

هذا النحو... شروع فى قتل روح، والطلاق إزهاق لهذه الروح!

قال: هل أعود إليها؟

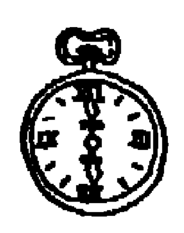
- لا... فإنك ستقتلها مرة أخرى بالطلاق!

قال: هل أتزوج من غيرها؟

- لا... لأنك سترتكب جريمة القتل مع اثنتين... بدلا من واحدة!

قال: ألا راحة لى إلا فى عذاب ضميرى؟

- راحتك ليست شيئًا... المهم أن تستريح من عذبتها بالزواج، وبالطلاق... فأرحها وتعذّب!!



لماذا تحاولين أن تدمرى يأسى منك، بعد ما تبدد أملى؟!
إنك لا تريدين لى أن أستريح. لقد أصبح التنكيل بطمأنينتى هواية تمارسينها بخفة وبراعة!

أىّ خاطر شق أغراك بأن توقظى تليفونى من غفوته التى استمرت ثلاثة أشهر؟

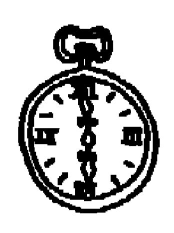
لقد احسست وأنا أستمع إلى صوتك فى التليفون.. أنك تحرقيننى بنبراتك التى تشعل النار فى مشاعرى كلما سمعتها أو تذكرتها!

ولكنك لن تستطيعى أن تحرق قلبى... فلقد احترق.. ولم يبق منه إلا الرماد!

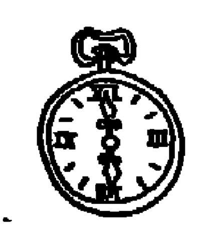
دعى تليفونى.. إنك لا تديرين أرقامه.. ولكن تديرين رأسى وتلهبينه.

هل تريدين بعد ما أحرقت قلبى، أن تحرق رأسى أيضًا؟

ترفق بى يا طفلتى... يا حبيبتى يا حريق!!

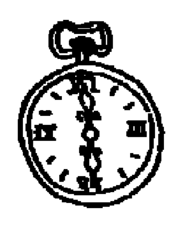


احتشمى يا ذكرياتى... لا تحاولى أن تردينى إلى الماضى الذى هربت منه.. بعد ما عض مشاعرى، ولوى قلبى!



افهميني على حقيقتي... إنني لا أجري وراءك ولكني أجري وراء دموعي، وأنفاسي وخلجات نفسي، أريد أن أستردها بعد ما خسرتها على مائدة الحب... تمامًا كما يفعل المقامر الذي يخسر أمواله. ويبرر خسارته بسوء الحظ ولا يخطر بباله أن من يلعب معهم لصوص... وأنهم كلما لاعبوه تضاعفت خسارته!

العبي معي مرة أخرى... ولن أبالي سوء حظي، ولكن لا تسرقيني!

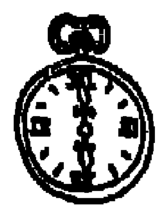


إذا كانت الحياة حقيقة... والموت حقيقة... فأين - نحن البشر - من الحقيقتين؟

هل نحن أحياء ننتظر الموت؟ هل نحن موتى تركنا مرحلة الحياة؟

ولكن لماذا نسأل عما لا جدوى فى أن نجهله، أو لا نجهله؟

ليتنى أعجز عن استخدام هذه الكلمات: «لماذا» و«كيف» و«لمَ» و«علامَ» فإنها شواكيش تطرق رأسى كلما حاولت أن أعرف من أنا... ومن أين..؟ وإلى أين؟



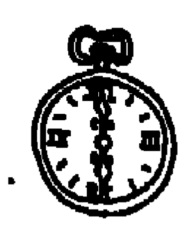
مشت بضع خطوات فى بهو الفندق.. فأذهلت كل ما فيه.. الناس.. والجدران.. والكراسى!

إنها لا تخطو بقدميها... ولكن تغنى وتبتسم...

نظراتها، لفتاتها، ملامحها، تدعونى إلى ما أريده، ولا أقوى عليه... الحب!

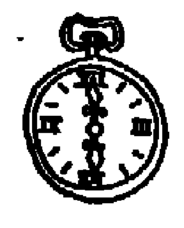
فستانها الأنيق يتشبث بقوامها فى شغف، وهى لا تتحرك فى الفستان... ولكن تنبض فيه!

سيدتى... ليس ما ترتدينه فستانًا.. وإنما أنت ترتدين قلبى!!



لا تستسلمى للندم على ماض لن يعود، لقد اعترفت - فى راسى - بأنك ذبحت قلبى وهو ينبض بك، وشنقتنى بمشاعرى.. وهى ملتهبة بحب، أشبه بحقدك.. عاصف ومجنون!

وقد يكون هذا صحيحًا.. ولكنك توهمت أننى عفوت عنك... فلم أنتقم منك، وهذا ليس بصحيح.. كل ما حدث أنى قابلت الغفران بالغفران... غفرت لك الغدر والكرهية، بعد ما غفرت لى وفائى وحبى!



قالت...

قلت : لا. بل أنا قوى، لأنى أكافح، وأناضل، وأقول كلمتى.

قالت : . . .

- ربما . . . ولكن ضعفى للحب، والخير، والجمال لا يعيبنى. . إنه البطاقة الشخصية لإنسانيّ!

قالت : . . .

- والقوة أيضًا ليست عيبًا. . . ما دمنا نمارسها فى الدفاع عن العدل والحق، والسموّ بالحياة.

قالت : . . .

- أبدًا. . . إننى لست متشائمًا، ولكنى أنفعل بمشاعر النشوة والألم، فأغنى وأبكى.

قلت :

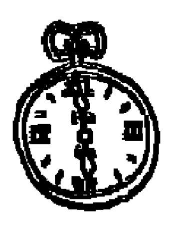
- هؤلاء الذين يغنون دائمًا، ويبتسمون دائمًا ليسوا متفائلين، ولكنهم يهربون من حقيقة الحياة، أو يجهلون حقيقة الحياة!

قالت : . . .

- هل تريدين أن أكون واحدًا منهم ؟ !

قالت : . . .

- ولكنى لا أريد !

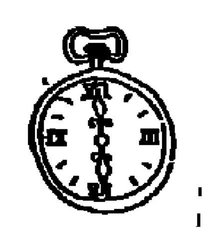


قفى أيتها الأيام، إنك لا تقطعين طريقًا.. ولكن تقطعين عمرى. . . استريحى وأريحينى، فقد ظللنا نجرى معًا أكثر من ثلاثة وخمسين عامًا. . .

ولكن. . كيف نتوقف عن المشى؟ إن معنى ذلك أن نموت، وأنا أتشبّث بحياتى، وهى مهما ترهقنى. . أحبها، إننا نبكى منها، وإذا هدّدتنا بالتخلى عنا، بكينا على أنفسنا !

وما أعجب العمر، إنه الشىء الوحيد الذى إذا زاد نقص. . . وفى هذا اليوم ينقص عمرى، فقد أضافت إليه الأقدار عامًا جديدًا ! !





كانت ترقد فى سريرها بالمستشفى، وحولها دعوات أهلها، وعناية أطبائها، ولهفتى عليها وخجلى من نفسى... فقد تأخرت عن زيارتها!

ولما رأتنى رسمت على شفتيها ابتسامة تشع منها رقة قاسية!

وتمنيت أن تعاتبنى على تقصيرى... فالعتاب أجمل أساليب الغفران... وتحققت أمنيتى...

قالت: لماذا لم تسأل عنى طيلة هذه الأيام؟

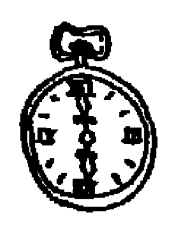
قلت: لم أكن أعرف مكان المستشفى؟

قالت: ولكنك أرسلت لى أمس وردًا، فكيف جاء الورد وأنت لا تعرف عنوانى؟

قلت: الورد يعرف طريقه إليك فى أى مكان!!

... وقفزت الابتسامة من شفتيها.. وأخذت تعبث بملامح وجهها الشاحب الجميل.

ونظرت إليها، وإلى الورود التى تملأ غرفتها، فلم أر إلا وردة واحدة تتلثر بملاءة بيضاء وترقد على سرير!!



أقبلت علينا فى المطار فصافحتنا... والابتسامة السحرية تخفى آلام مرضها الذى تعانيه، وقد نصحها أطباؤها بأن تقيم بعض الوقت فى أحد مستشفيات أوربا، كان يبدو عليها نشاط شاحب، وفرحة ذابلة، ويقظة متثائبة؟

وحان موعد قيام الطائرة، وصافحتنى وهى تقول: لماذا أتعبت نفسك وجئت لتودعنى فى المطار؟

وقلت لها: إننى هنا لا أودعك. إننى هنا أنتظرك بشوق ولهفة!

قالت: ولكن رحلتى ستطول...

قلت: إن شوقى إليك ولهفتى عليك أطول من رحلتك، وأطول من عمرى!

فضحكت فى سخرية وقالت : هل ستظل فى المطار إلى أن أعود ؟!

قلت : نعم...

وانطلقت الطائرة فى الجو، وانطلقت إلى بيتى... وأحسست فى البيت، فى المكتب، فى الشارع، أنى أعيش فى مطار... وأن الطائرات تحلق دائمًا فوق رأسى !!

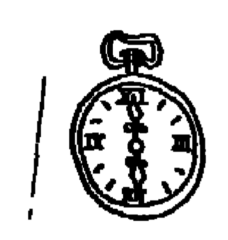


ما أكثر الأشياء التى تشدنى إلى هذا المكان مرة فى كل عام... طفولتى، صباى، شبابى، ذكرياتى الطيبة... ففى هذا الحى الشعبى كان لى أهل، وأصدقاء، وبيت وقد خرج من حياتى أعز أهلى، ذهبوا إلى العالم الآخر، وتركت أنا وأصدقائى الحى الذى عشنا فيه .. إلى أحياء أخرى بعيدة متنافرة.

الزحام شديد. كنت أراه فى طفولتى فأفرح به، وأزيده بالاشتراك فيه... الضوضاء صاخبة وما أكثر ما زدتها صخبًا

وأنا صبي.. وقد حاولت أن أشهد الزحام.. فإذا به يكاد يشق جسدى وأحسست أن خطواتى تختنق فى قدمى!

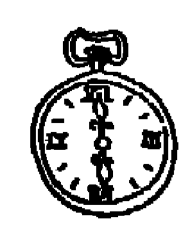
حاولت أن أصغى للأصوات المدوية بالأذكار، والأغانى ونداء الباعة. وإذا أذناى لا تقويان على أن تسمعا... وهربت من الزحام والضوضاء. هربت من طفولتى، وصباى، وشبابى.. وتركت الليلة الكبيرة لمولد السيدة زينب. وفى رأسى من الذكريات صخب وضجة، وزحام... أشد من صخب المولد، وضجته وزحامه!



إلى أين يقودنى ولعى بالجمال؟ إنه إحدى حقيقتين عثرت عليهما فى حياتى... أما الحقيقة الأخرى فهى الموت!

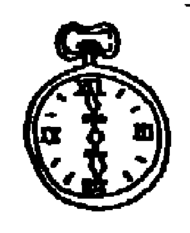
وبقدر ما أكره الموت... أحب الجمال، وكانت الجلسة. تضم بعض الأصدقاء والصديقات وأرادوا أن يحرجونى فسألونى: ما هو الوجه الجميل بين هذه الوجوه؟

قلت: الجمال منافق... ليس له وجه واحد!!



يا شقائى من أوهامى. لقد عذبتنى خمس سنوات... أقنعتنى خلالها بأنى لا أستطيع أن أعيش إذا مر يوم دون أن أرى فيه من انتفضت بحبها عروقى، وجرت فى دمى... وخفق لها قلبى!

احتشمى أيتها الأوهام، والتمسى لك ضحية غيرى. فقد مضت عشرة أيام لم أر فيها من ألهمتنى الحب، والشعر، والألم.. ومع ذلك.. فما زلت أحيا. وأصبحت كأكثر الناس.. لا أبكى، ولا أبتسم... ربما لأن دموعى نضبت... وابتساماتى اختنقت!... ربما لأنى دموعى وابتساماتى صارت مثلى فى ذهول... فلا الدموع تعرف طريقها إلى عينى، ولا الابتسامات تعرف طريقها إلى شفتى!!



قلت: ما تسمينه تشاؤمًا... هو واقع وما تسمينه

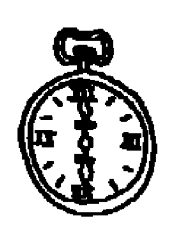
تفاؤلا... ليس إلا خيالا.

.....

قلت: الفرق بينهما أن الإنسان الواقعى يعيش ويعلم أنه سيموت.. والإنسان الخيالى يعيش ويموت.. ولا يدرى أنه سيموت!

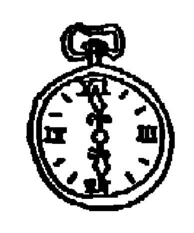
.....

قلت: أنا أعلم أنى سأموت!

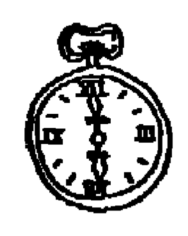


إنها كالدنيا، لا تبق ولا تتجدد إلا إذا خرج من حياتها ناس، ما أكثر الذين شهدتهم وهم يغادرونها.. وما أكثر المواليد الذين رأيتهم وهم يطرقون بابها!

شهيد وحيد لم أره... لأنه كان مختبئًا فى ثيابى!



كلاهما كاتب أصدر عشرات الكتب، ولكن أحدهما يتحداك.. بأسلوبه أن تقرأه... والآخر يتحداك بأسلوبه ألا تقرأه!

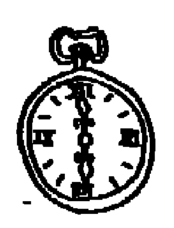


ياليل... حذار أن تتخلى عنى.. كن معى.. تشبث بوجودك لا تدع فجر الغد يتسلل إليك ويطويك... قاومه.. مزق خيوط شمسه قبل أن تشرق.. فأنا لا أستطيع أن أواجه هذا الغد الذى سترحل فيه عنى من عجزت عن أن أحبها، وعجزت عن أن أنساها!

إنها كلما اقتربت منى... ألهبتنى، وإذا ذهبت إلى مكان بعيد.. أحرقتنى... لا أريد أن أحترق، اللهب يكفى... فقف مكانك ياليل، لاتَدُرْ مع الأرض... حتى لا يجىء يوم

الوداع الذى ليس من حق أن أقول لها فيه كلمة وداع!

أيها الغد... ليتك تضل طريقك إلينا.. ولا تجىء أبدًا!



كان بيتها مثلها... هادئًا، ودبعًا. واستقبلنى ابنها الصغير، وسألته عنها فقال إنها تنتظرك فى غرفتها... وعدت أسأله: هل هى مريضة؟ فلم يجبنى، وسار أمامى ومشيت وراءه فى حذر حتى لا أزعجها. كنت أمشى لا على أطراف أصابع القدمين.. ولكن على أطراف عقلى، وأطراف قلبى!

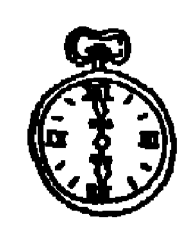
لم أشعر بأنوثة الأمومة إلا فى هذه اللحظة... كانت تجلس على حافة السرير.. تحنو على بنتها الصغيرة.. تغريها بالنوم.

وقالت بصوت خافت: لقد دعوتك إلى هنا لترى ابنتى.. فإنك لم ترها من قبل.. أليست جميلة؟

قلت : جميلة جدًّا... ولكن... أليس هناك طريقة أخرى لإغرائها بالنوم؟!

قالت : كل الأطفال لا ينامون إلا هكذا!!

قلت : لو كنت طفلاً... لما أغمضت عينى وأنت تحاولين أن تنيميني هكذا!



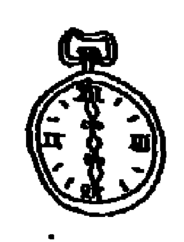
كانت تتكلم فى موضوع جاد، وكان منطقها مثل كيانها... رقيقًا وقويا!

ورمقها أحد الجالسين بنظرة إعجاب، فهزت رأسها اشمئزازًا منه.. فابتلع الرجل نظرته فى أجفانه... وانصرف بعد لحظات!!

وسألتها : لماذا تعاملينه بهذه القسوة؟!

قالت : ولماذا يجاملنى بهذه القسوة؟ ومضت تقول : هل تعرف أقسى من المجاملة الزائفة؟

ـ أعرف... أنت!!



اعذريني إذا لم أحتفل بك، وأخرج لاستقبالك فى كل مكان يضج بالزحام والأضواء والرقص والموسيق، وعلى فمى ابتسامة للغد، وفى عينى دمعة على الأمس... قلبى نشوة نابضة بالأمل، مشاعرى تفاؤل ملتهب، ذراعاى أحضان تتهيأ لتضمك إلى صدرى!!

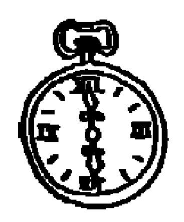
فهكذا كنت أفعل مع غيرك فى السنين الماضية، ولكنى فى هذه السنة لزمت بيتى وأنت فى طريقك إلى الدنيا... لم أطفىء النور. فقد كنت مشغولا بتسجيل خواطرى، بصدق وقسوة... لم تتحرك شفتاى بابتسامة أو قبلة، فليس عندى ما أبتسم له، وليس معى من أقبله!

أقبلى أيتها السنة الجديدة، واصفحى عن احتجاب ابتساماتى وقبلاتى... فإن فمى يستحى أن يبتسم، وهو ملىء بمرارة الدواء... وقد صار عاجزًا عن أن يقبل إلا شفتيه؟

لقد عشت كل لحظة من حياتى أتحرك، وأمشى، وأطير

فرحًا بالدنيا، أو سخطًا على الدنيا... وقد حاولت هذه الليلة أن أتحرك فإذا بى أهتز مكانى... حاولت أن أسير، أو أطير. ولكن كيف أسير بلا قدم، وأطير بلا جناح!

إن الخجل منك يكاد يذيبنى... فليس عندى ما أستقبلك به إلا دموعى... ولكن أين دموعى؟... لقد نضبت هى الأخرى، كما نضبت ابتساماتى!.



ـ : .....

قلت : كيف تتصورين هذا؟!

ـ : .....

قلت : لقد كذبوا.

ـ : ....

قلت : إنهم لا يؤكدون إلا كذبهم!

ـ : .....

قلت : وهل تتصورين أن أجرح كبرياءك... وأنت كبريائى!!

ـ : .....

قلت : لم يحدث هذا مرة واحدة....

ـ : .....

قلت : نعم... أكثر من مرة! فأنا دائمًا أغتابك بالحب، والشوق، والحنين...

ـ : .....

قلت : إذا تحدثت عن إلهام جميل... فليس معنى ذلك أنك خرجت من حياتى... فأنت حياتى!

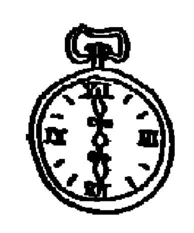
ـ : .....

قلت : لا أنكر أنى بحثت عما هو أجمل فوجدته... وجدته فيك!

ـ : .....

قلت : مشاعرى أنا؟

وقبلت الفم الذى ترنحت منه هذه الكلمة... لم أقبله بشفتى، ولكن قبلته بأذنى!



جذابة، ساحرة، تشدك إليها برقة، وتدفعك عنها بقسوة!

عاشت حياتها فى صراع ناعم مع الشر.. أحيانًا تتغلب عليه وتأخذ مكانه، وأحيانًا يتغلب عليها ويأخذ مكانها!

التقيت بها، كاد وجهها يصطدم بوجهى، ولكنها لم تُثر اهتمامى فهى واحدة من كثيرات... ازدحم بهن دكان الملابس الذى أشق زحامه بخطواتى... وأمسكتنى من ذراعى.

وسألتنى. لماذا تتجاهلنى؟! وقلت لها: كيف أتجاهل من لا أعرفه؟! وارتبكت الحروف على شفتيها وهى تقول فى إلحاح ساخر:

هل نسيتنى حقًا؟!

وقلت: من المستحيل أن أنساك... لأنى لا أذكرك حتى أنسى، أو أتناسى؟

قالت: لقد ظل قلبك ينبض بحبى خمس سنوات... ألهمتك فيها أرقّ أشعارك... فكيف تعجز عن أن

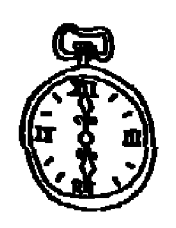
تذكرنى... وتعجز عن أن تنسانى؟!

وحدقت فى ملامحها بذهول!!

وقلت: هه... اعذرينى.. فإن قلبى فقد ذاكرته!..

قالت: الرجال كلهم هكذا...

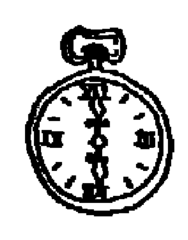
قلت: الرجال هكذا أحياناً... والنساء هكذا دائماً!!



دخل حياتى ونحن طفلان بعد، فهو صديق لا أجرؤ على أن أتخلى عنه، برغم جرأته الشديدة فى التخلى عنى! جمع فى ذاته متناقضات تثير الدهشة فهو ذو ذكاء حاد، وحماقة أكثر حدة... قلبه رقيق، وخواطره شرسة... برىء يسلك سلوك متهم... حمامة ترتدى جلد ثعلب!

إذا أردت الابتعاد عنه.. اقترب منك، وإذا أردت الاقتراب منه ابتعد عنك!.

حاولت أن أكرهه فلم أستطع... حاولت أن أحبه فلم يستطع!.



ـ : . . . . . ؟

قلت : كل ما ليس له حدود يبهرنى !.

ـ : . . . . . ؟

قلت : مثل المجهول، والفن، والجمال، والكافيتريا. . .

ـ : . . . . . ؟

قلت : المجهول هو ما نحاول ـ عبثا ـ أن نصل إليه !.

ـ : . . . . . ؟

قلت : الفن هو نبض الحياة، وملامحها الجذابة !.

ـ : . . . . . ؟

قلت : الجمال فتنة أتمناها، وأخشاها !.

ـ : . . . . . ؟

قلت : الكافيتريا مكان يصخب بالناس والأضواء ويستقبل الوافدين إليه ليلا ونهارًا، ليس له أبواب يغلقها، أو يفتحها. . . أحضان مستعدة فى كل وقت لتضم إليها من تعرفه، ومن لا تعرفه !.

ـ : . . . . . ؟

قلت : ليس لجمالك حدود !.

ـ : . . . . . ؟

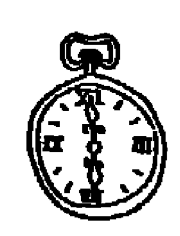
قلت : ماذا تريدين . . . إذن ؟ . .

ـ : . . . . . ؟

قلت : أنت لست مجهولة، ولست فنًا.

ـ : . . . . . ؟

قلت : نعم . . . أنت كافيتريا !.

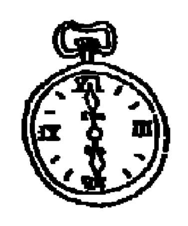


ليتك تعلمين أنك لا تهزينني بتصرفاتك الحمقاء. فلم يعد يربطنى بك إلا ماض لا تستطيع قوة أن تعيده إلينا، أو تعيدنا إليه . . . كنت أتعذب فى حبك بكبرياء، وقد ذهب الحب، وبقيت لى كبريائى . . . كنت قاسية فى فتنتك . . . ونضارتك، وجاذبيتك . . . فأصبحت قاسية فقط!

إن كل حماقة ترتكبينها اليوم لا تعذب قلبى، ولكن

تعذب سمعتك... فارحمى نفسك من حماقاتك!

ولكن هل يمكن أن يعيش العصفور بلا هواء؟!.. كذلك أنت يا عصفورتى... لا بد لك من هواء تعيشين فيه، لا بد لك من حماقة تعذبك أو تعذبنى... وقد أصبحت عاجزًا عن أن تعذبنى حماقاتك... فمارسيها كما شئت، وعيشى، وتعذبى!!



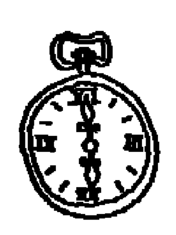
كلما استقبلت يومًا جديدًا، شعرت بأنى معه فى غربة... فلا أعرف أين أنا منه، ولا أين هو منى؟ حتى لأكاد أسأله: من أنت؟ وأكاد أسمعه وهو يسألنى فى ازدراء: من تكون؟!

ولا أحد منا يستطيع أن يجيب، فاليوم مثل الإنسان. كلاهما لا يعلم لماذا يلتقى بالآخر؟ وكلاهما لا يدرى لماذا يرحل، أو لماذا يجىء؟

الأيام الوحيدة التى أشعر فيها بالألفة، والطمأنينة،

والتجاوب مع إنسانيتى، هى هذه الأيام، ولا أدرى لماذا؟ ربما لأن شغفى بها، منعنى عن التفكير فيها... ربما لأنى أصوم عن الطعام، والشراب، والشك، والظنون، وأستغرق فى إيمان عميق بالله، حتى ليخيل لى أنه خالق، وصديق... فأناجيه، وأعاتبه، وأعانقه، وأغمر ذاته المقدسة بقبلاتى!

فى هذه الأيام، تصفو روحى، فلا خوف، ولا قلق، كل الناس أحبابى... السعداء يبتسمون بشفتى، والمحبون تخفق قلوبهم فى ضلوعى... والمساكين الكادحون الصائمون... يعرقون بجبينى، ويجوعون بمعدتى، ويظمأون بحلقى، ويئنون بأنفاسى!!



سألتنى أيهما أجمل: أنا.. أم هى؟

- أنتما!.

قالت: ألا ترى بيننا أى فارق؟

- أرى... إن جمالها رقيق، وجمالك عميق!

قالت : وما الذى يستهويك... الرقة، أم العمق ؟

- الرقة يد تقود الأعمى فى الطريق... والعمق سوط يلهب ظهر الحصان ليحثه على أن يسرع الخطى...

قالت : وهل أنا يد، أم سوط؟

- أنا حصان !

قالت : هل أفهم من ذلك أنى سوط يلهب ظهرك ؟

- افهمى !

قالت : وأنت... هل تحب أن تكون سوطًا، أو تحب أن تكون يدًا ؟

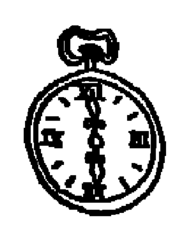
- أحب السوط... ولكنى لا أتمنى أن أكونه !

قالت : هذا كلام غير معقول... كيف لا تحب لنفسك ما تحبه فى غيرك ؟!

- إننى أحب رقص الغوازى، ولكنى لا أمارسه، ولو شنقونى !

قالت : وهل ترانى راقصة ؟

- وغازية أيضًا !!

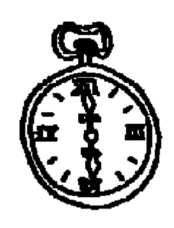


الحب جمعنا، والحب فرقنا... مأساتها أنى كنت حبها الأول... ومأساتى أنها كانت حبى الأخير!.

هل يجمعنا الحب مرة أخرى؟ كل تصرفاتها تقول لا... وكل تصرفاتى تقول ربما!

كم أتمنى أن تنتصر «لا» على «ربما» فقد اقتنعت بأن تجربتى الفاشلة، لا ينبغى أن تتكرر!.

إننى لا أهاب الغدر... ولكنى أهاب أن أتعذب من الغدر أكثر مما تعذبت!.



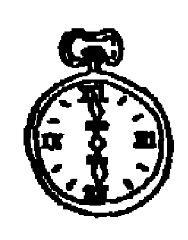
كلما نظرت إلى أمسى... ويومى أصابنى الفزع!! فأنا حتى هذه اللحظة أعيش على الدَّين. ليس عندى ما أملكه.. حتى ملابسى... فهى بالتقسيط! وقد عرفت ناسًا عقلاء

حسبوا لغدهم الحساب.. فلما أدركتهم الشيخوخة مثلى وجدوا ما ينفقونه على أنفسهم بلا تعب!.

أما أنا... فلا استطيع أن أحصل على ما أروى به ظمئى... إلا بعرق عقلى... ولا أستطيع أن أظفر بما يمسك رمق.. إلا إذا أنهكت ما تبق من قواى...

وفى أول كل شهر أواجه وحشًا مفترسًا... هو أقساط الديون التى لا تريد أن تنتهى!

تمنيت لو كنت فلاحًا أملك فدانًا أزرعه بنفسى، ولا أقرأ إلا الخضرة والسحاب، والشمس الساطعة، وظلام الليل... ولا أسمع من الموسيق إلا زقزقة العصفور، وحفيف الأشجار، وأصوات الحيوانات، وأزيز الساقية!.



الجلسة صاخبة... أضواء مثيرة، وأصوات عالية، وأنغام موسيق، وجلست وحدى فى ركن منعزل. وجاءتنى تتهادى فى رشاقة، شعرها الأسود يكاد يفترس بخصلاته المتهدلة جسدها

الأبيض، وخدها الأحمر. وقد أشرقت من فمها ابتسامة تغرى بالتفاؤل والأمل.. وجلست إلى جانبي وسألتنى : لماذا تجلس وحدك ؟

وقلت لها : سأنضم إليكم بعد قليل.

وعادت تسألنى : هل يشغلك شيء ؟

قلت : تشغلنى أشياء !

قالت : هل أكون متطفلة إذا سألتك عن هذه الأشياء ؟

قلت : أنا فى حالة عاطفية... لا أعلم ماهى ؟

قالت : لابد أنك تستقبل حبًّا جديدًا ؟

قلت : أظن...

قالت : من هى السعيدة التى اتجه إليها قلبك ؟

ولم أجب عن هذا السؤال، فعادت تسألنى :

ـ ألم تصارحها بحبك ؟

قلت : لا أستطيع !

قالت : إنك دائمًا تستطيع أن تحب، وأن تعبر عن حبك بشراهة ؟

قلت : لو صارحتها بحبي... لنفرت منى !

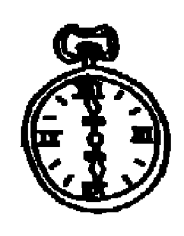
قالت : إنها إذن لا تستحق أن تحبها...

قلت : بل هى تستحق ماهو أكثر من الحب!

قالت : لماذا إذن لا تصارحها، هل هى قاسية؟ هل هى غبية؟

وصرخت فيها قائلا : اسكتى! إننى لا أطيق أن أسمع من اتجه إليها قلبى وهى تصف نفسها بالقسوة والغباوة!

ولم تفهم ماذا أعنى... أو لعلها فهمت وسكتت!!



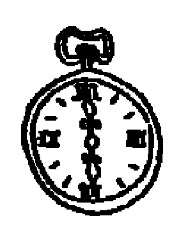
ما أقسى الفراغ الذى أعانيه فى هذه الأيام، إنى أتصوره وحشًا يفترس نبض قلبى.. وخلجات ذهنى!!

لست أطمع فى أن تملئى فراغ حياتى بأن تمسحى دموعى بلمسات يديك، فكل ما فيك كاذب... المشاعر، الأفكار، الصمت، السكون!

ولا أخدع... نفسى فأنكر أنى ما زلت أحب هذا الكذب بصدق مجنون! ولكنى يائس من حبى.. ولن أجرى وراءه بعد ما فتحت باب قلبك وقذفت بى إلى الفضاء!

كل ما أطمع فيه وقد انتهى ما بيننا.. أن أسمع منك كلمة وداع، كلمة أسى، كلمة كراهية... فحرام أن يذهب هذا الحب، هكذا... بلا كلمة!

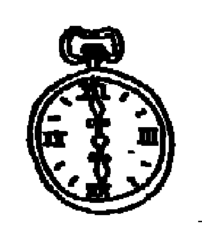
إذا كانت الكلمات ثقيلة على شفتيك الرقيقتين، فلا أقل من أن تحركيهما بحرف... بابتسامة... باشمئزاز... افعلى أى شىء، إلا أن تسكتى!!



اغفر لى يارب مرضى، واغفر لى غفلتى عندما تصورت طول عمرى أن المرض داء يعالجه الطبيب، وليس جريمة يرتكبها المرض!

إننى يارب لست حسن الظن بنفسى.. حتى أتمنى جنتك الخالدة!! فأنا قانع بدنياك هذه الفانية!!

أريد أن أعيش فى الدنيا التى أبدعتها ـ سبحانك ـ لأتفاعل معها، وأتغنى بها... فامنحنى الصحة لكى أستطيع دائمًا أن أتفاعل.. وأن أغنى!



قالت : أليس للحب نهاية ؟

ـ لكل شيء نهاية.

قالت : وهل الحب شيء ؟

ـ إنه جوهر كل شيء !

قالت : وما علاقة الحب بالدنيا ؟

ـ الدنيا مغامرة عاطفية !

قالت : هذا خيال !

ـ ربما... ولكنه أيضًا حقيقة ؟

قالت : كيف ؟

ـ ألا ترين أن الدنيا لقاء وفراق... ومطاردة !!

قالت : لا أرى...

ـ فى الدنيا نلتقى بالحياة... وفى الدنيا نفترق بـالموت... الليل يطارد النهار فى شوق... والقمـر يلهـث وراء الشـمس فى شغف !

قالت : وما رأيك فى الأقمار الصناعية والصواريخ ؟ هـل

هى الأخرى حب؟

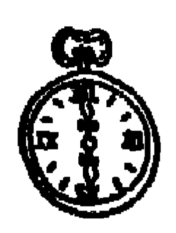
- إنها تعبير علمى عن الوصول إلى القمر الطبيعى الـذى أحبه العشاق؟

قالت: والأرض؟

- إنها مثل المرأة اللعوب... لا تكف عن الدوران!

قالت: وأنا... وأنت؟

- أنا صاروخ... وأنت قمر!!



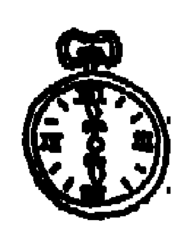
أنا لا أفزع إلا مـن شـيئين: آلام مـرض لا أعـرفه، وغموض امرأة أعرفها... وقد أتحمـل آلام المرض، بأمل أو بيأس أما غموض المرأة.. فـلا يجـدى معـى أملى فيهـا، أو يأسى منها... إن غموض الرجل يثير فيـه ريبـة أصـدقائه.. فيبتعدون عنه، والمرأة الغامضة تثير الريبة فيمن يحبها. إن كل خلجاته. ونبضاته تظل تسـأل فى حـيرة عـن سر هـذا الغموض... إذا أبدت الـرضا. ظـن أنهـا تخـدعه. وإذا

غضبت منه.. اعتقد أنها تكرهه... وإذا كانت وحدها.. سعى إليها... فيحسّ وحده بجوارها أنه فضولى، متطفل، ضيف غير مدعو!

وإذا أقبلت عليه.. فكر فيما ينطوى عليه إقبالها من نيات ماكرة!

ولا حيلة لمن يحب... فى أن ينزع من نفسه هواجسه التى أكدتها التجارب... وما أكثر تجاربى!! وكل تجربة منها أثبتت لى أن غموض المرأة لعنة تتعقب مشاعرى وتفكيرى... بقسوة ضارية!

إلى متى تطاردنى اللعنات... حتى بعد ما أصبح الحب ذكرى لن تعود... فالذكريات كالأيام التى تمضى، ربما كانت قريبة منا.. ولكننا لا نلتقى بها أبدًا...



ما أعجب هذه الصحراء... كل شىء فيها يشبه الآخر، الناس متشابهون فى حركاتهم.. وفى الانقباض البادى فى

مسحات وجوههم... القبور متشابهة. كلها أحجار وطوب وزهور، وماء يبل الثرى، كلها تضم عظامًا نخرة...

هنا، تحت المقابر.. تساوت الأعمار، والقيم... الشاب والشيخ، والذكى والغبى، ومن كان له مثل أعلى فى الحياة، ومن غادر الحياة ولم يكن له فيها مثل أو هدف!

ووصلت إلى المقبرة التى تعودت أن أزورها فى أكثر من مناسبة.. ففيها يرقد أحبابى الذين تركوا حياتى وذهبوا إلى حيث سنذهب مثلهم... حاولت أن أبكيهم فتعثرت الدموع فى محاجرى... حاولت أن أرثيهم... فلم تنطلق منى إلا كلمات خرساء.

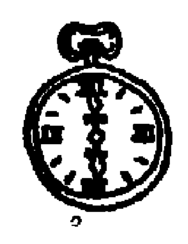
ووقفت فى خشوع، ثم جثوت فوق التراب الذى ضمهم بالأمس وسيضمنى غدًا، وأحنيت رأسى إجلالاً للموت الذى احتواهم بين ذراعيه... بهاتين الذراعين سيحتوينى يومًا!.

أيها الموت: أنا لا أخافك... ولكنى لا أفهمك!! فمن تكون؟! هل أنت تنزف دماءنا وأعمارنا لتروى ظمأك... أو لتروى ظمأ الحياة؟

ما أنت ياموت؟! وما الحياة؟

يا أسفى على أنى أعيش حياتى ولا أعـرفها، وألـقى الموت دون أن أعرفه!

أيتها الصحراء... يـا مـدينة القبـور والموتى، إذا جئـت إليك محمولا فى نعش.. فـاستقبلينى بـروحك الـوديعة الـتى شعرت بها اليوم عندما جئتك محمولا فى سيارة!



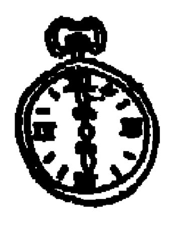
إن ولعى بالجمال لا يقف عند حد... فأنا أحـب الجمال فى الطبيعة، والفن، والأخلاق، والمرأة...

وهذه الأشياء تعبر بصدق عن جمالها... أمـا المرأة فهـى وحدها القادرة على التعبير عن الجمال بإغراء!

والصدق يعطينى صورة مستقيمة للجمال، والإغراء يعطينى صورة ملتوية... ولكن هذا الالتواء يشدنى من مشـاعرى... ويلوينى معه!

بين الناس من يسمى هذه التجـربة حبًّـا، وبينهـم مـــن

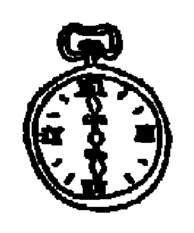
يسميها وهمًا... ولقد عشت التجربة أيامًا، ولا أدرى إن كنت أحب... أو كنت أتوهم؟!



كل من رآها هزته بملامحها الجميلة الدقيقة، إلا أنا فإنى أحس كلما رأيتها براحة من الاهتزاز!

فهذه الملامح ربما كانت حلوة، ولكنها مترددة، مرتابة... إنها لا ترى... ولكن ترسل نظراتها إلى غير اتجاه! لا تبتسم... ولكن ترسم فوق شفتيها ابتسامة... دموعها مثل ابتسامتها مرسومة!

لم تقنعنى بأن أفكر فيها بنشوة أو ألم، وما لا يقنعنى لا يجذبنى إليه... إن الحياة نفسها لم تجذبنا إليها... إلا بعدما أقنعتنا بفتنتها!.



قالت لى : ألم تسمع بما حدث ؟

ـ سمعت.

قالت : هل يرضيك أن يغدر بى هكذا ؟

ـ يرضينى !

قالت : ما الذى يرضيك ؟

ـ الغدر !

قالت : كيف ترضى بالغدر... وأنت تشكو منه لطوب الأرض ؟!

ـ ألم تغدرى به عشرات المرات ؟

قالت : لو كان هذا صحيحًا... فهل تقبل أن نعاقب على الجريمة... بارتكاب نفس الجريمة !

ـ إن الغدر جريمة عند من لا يغدرون... وهو عندى الغادرين قدرة على الخداع بذكاء... وما أظنك تغضبين ممن استعار ذكاءك الخارق مرة واحدة فى حياته !

قالت: ما الذى تتصور إذن أنه أغضبنى؟

- ربما أغضبك منه اعتداؤه على اختصاصك!

قالت: لقد خيبت ظنى فيك... هل تعتقد حقًّا أن الغدر هو اختصاصى؟

- نعم...

... وأغلقت سماعة التليفون فى وجهى، وبادرت فأدرت بأصبعى قرص التليفون، وسمعتها تقول «ألو» فسألتها: لماذا تعجلت بإنهاء المكالمة؟

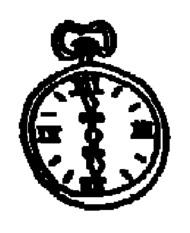
قالت: إنك لست طبيعيًّا... لست الشخص المهذب الخجول الذى أعرفه!!

- أنا كما تعرفيننى، فمازلت مهذبًا، ولكنى كلمتك بصراحة... وصحيح أنى لم أعد خجولا، فليس عندى ما أخجل منه إلا ماضينا معًا... ولم يعد لهذا الماضى وجود!

قالت: اسمح لى أن أكون مهذبة ولا أرد عليك بكلمة...

- اسمحى لى بكلمة... إنه عندما غدر بك... لم يعتد على اختصاصك، ولكن اعتدى على اختصاص كل أنثى!

... وصرخت فى وجهى، وأنهت المكالمة، فعندما تتكلم الحقيقة، لاتتكلم الأنثى... ولكن تصرخ!!



عرفتها منذ سنوات، وكنت لا أجرؤ على أن أقول لها كلمة تنم عن حبى... إن جمالها الساحر يرهبنى... أحس أن مشاعرى، وانفعالاتى تثور، وتعربد، وهى بعيدة عنها، فإذا اقتربت منها... خافت، وامتقع لونها!

إلى متى تبقى هذه الحدود قائمة بينى وبينها؟

لماذا لا أقتحم عليها جمالها المهيب، بعاطفتى الطائشة؟ كل ما استطعته... أنى أحدثها ـ أحيانًا ـ عن أن قلبى سيىء الحظ، فإذا سألتنى عن سر ذلك... رويت لها سرًا لم أعرفه من قبل أن أرويه لها!

وأمس خيل لى أنها عرفت السر. عرفت نفسها، فلما سألتنى كيف حالك اليوم؟ قلت الحمد لله... فعادت تسألنى: هل رأيتها قريبًا؟

قلت : نعم . . .

قالت : متى ؟

قلت : الآن !!

قالت : ماذا تعنى ؟

ولم أستطع أن أقول كلمة . . . فقد تحولت ابتسامتها إلى اشمئزاز . . .

وقالت لى : لقد كنت إذن تخدعنى طيلة هذه السنوات !!

وقلت لها : بل كنت أخدع نفسى . . . فهل تغفرين لى حماقتى !

قالت : بل أنا أغفر لك حماقتى أنا !!

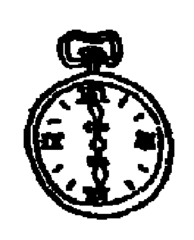
قلت : ماذا تعنين ؟

قالت : لقد كنت أشعر بك وأفهمك . . . ولكنى كنت أغالط الحقيقة وأقول . . . إنه يحب إنسانة أخرى !

قلت : والآن هل لى أن أقول بصراحة إننى . . .

وقبل أن أتم كلمتى . . . قالت بل نستطيع أن نفترق إلى الأبد بصراحة !

. . . وافترقنا !!



سألتنى هل يصلح صوتى للغناء؟

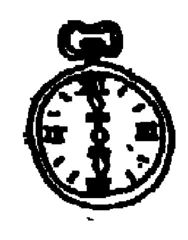
ـ ربما... ولكنك لا تستطيعين أن تكونى مغنية؟

قالت : لماذا؟

ـ لأنك غانية!

قالت : وما الفرق بين المغنية والغانية؟

ـ المغنية تثير الشعور بالجمال... والغانية تبتذل الجمال!



قال لى : ما هو العقل؟

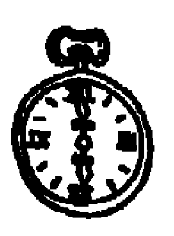
ـ العقل يفكر!!

قال : وما هى الروح؟

ـ الروح تشعر!!

قال : وماهى النفس؟

ـ إنها تعيش على ما يفكر فيه العقل... وما تشعر به الروح!



قالت لى: والدهشة ترتعش فوق ملامحها الرقيقة: لماذا لا تفكر فى الزواج؟... إنك فى حاجة إلى من تشاركك حياتك.

ـ لم تعد لى حياة... حتى يشاركنى فيها أحد!!

قالت: أنت متشائم أكثر مما ينبغى!

ـ بل أنا واقعى كما ينبغى...

قالت: لم أفهم ماذا تعنى!!

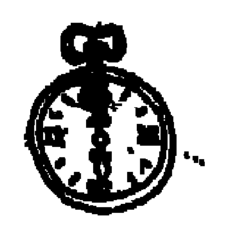
ـ لن أتزوج.. فقد جاوزت سن الخمسين؟

قالت: هذه هى سن العقل... والحكمة.

ـ هل ترينى عاقلا وحكيماً؟

قالت: طبعًا...

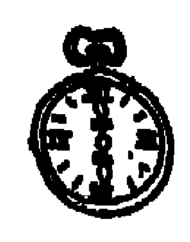
ـ كيف إذن أتزوج؟!



كنت أضيق بأسراري، فأهمس بها لأصدقائي. وكانوا كلما أدركوا حرصي على ألا يذيعوا السر، تفننوا في إذاعته... فلا توجد هواية يمارسها الناس بشغف... مثل هواية إذاعة الأسرار!

ثم علمتني التجارب أن أحتفظ لنفسي بأسرارها، فلا أبوح بها لأحد.

ولقد تبينت أخيرًا... أن التجارب لم تعلمني شيئًا... فإني، دون أن أدري، أكشف لصديق واحد عن مشاعري، وأفكاري، وانفعالاتي، أكشف عما أعانيه من شك ويقين ومعرفة وجهل، وفرح وكآبة. وهو لا يغضبني إذا أفشي سري، بل لعله يرضيني.. هذا الصديق هو قارئ الذي أكتب له كلمتي، وأغني شعري!

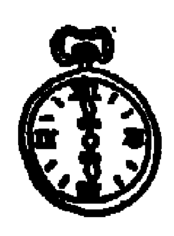


يملأ المجلس بجسده المكتنز، الضخم، القصير. فإذا تكلم شعرت بأن مقعده قد خلا منه... فهو لا ينطق كلمات، ولكن يجمع بلسانه حروفًا لا تتألف منها كلمة... فهو لا يجيد إلا شيئين: الضحكة العالية، ومضغ الطعام!

كان ثراؤه فاحشًا، وجهله فاحشًا، وتطور الزمن فنقص ثراؤه، وزاد جهله!

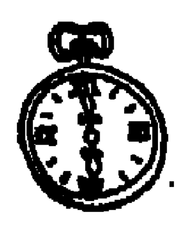
كان إذا طالت السهرة، تثاءب ثم غطّ فى النوم، فأصبح لا يغط فى النوم فقط، ولكن يغط فى اليقظة أيضًا!

يمشى فى زهو، ويبتسم فى خيلاء. وهو لا يريد بذلك أن يفرض عليك احترامه.. ولكن يريد أن يحترم نفسه بوقاحة!

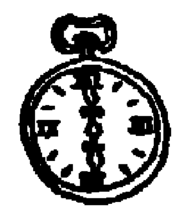


الحب والأنانية يتشابهان. كل ما بينهما من فرق... أن

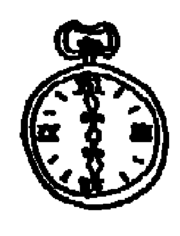
الحب هو أن تحب غيرك... أما الأنانية... فهى أن تحب نفسك!



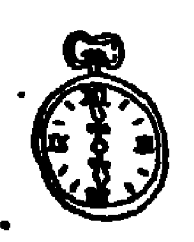
لقد فقدت ذاكرتى، ولكنى لم أفقد ذكرياتى... ربما لأنى أريد أن أعيشها... ربما لأنى أعيشها فعلا!



رفقًا بى... ليست هذه نظرات يخفق لها قلبى... هذه وخزات فى قلبى!



كانت ابتسامتها الرقيقة تدعونى إليها، وكان أسلوبها المريب يقصينى عنها... وأخيرًا انتصرت الابتسامة على الأسلوب!!



قال لى : أما زلت تؤمن بالحب؟

ـ أومن بأنه انتحار!

قال : ولكن الانتحار جريمة...

ـ والحب أيضًا جريمة تشبه جريمة الانتحار!

قال : أنا لا أفهم ما تعنيه!

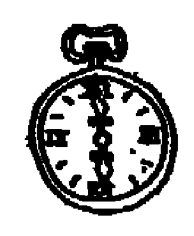
ـ إن من يفشل فى ارتكاب جريمةِ الانتحار... يتعرض للعقوبة، ومن ينتحر فعلا... يفلت من العقوبة... لأنه يموت!

قال : وما علاقة هذا بالحب؟

ـ من يفشل فى ارتكاب جريمة الحب يعش فى عذاب.

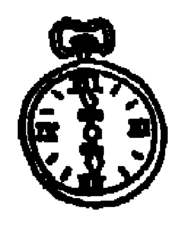
قال : ومن ينجح؟

ـ أنا لا أتكلم عن الآخرين... أنا أتكلم عن نفسى!

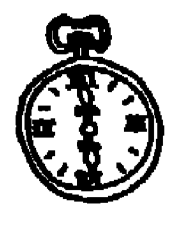


العجوز الطائش... كالسهم الطائش... كلاهما لا يصيب الهدف...

يا ويلى من طيشى!



لو كان الفقر رجلا لقتلته، ولكن الفقر، مع الأسف، رجل وامرأة!

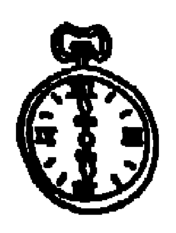


سألتنى: ما بال ساقك معوجة؟ هل أصابها كسر؟

قلت: لا. ولكن أصابتها عدوى من سلوك معوج!!

قالت فى ثقة خبيثة : وما الذى يرغمك على معرفة أصحاب السلوك الأعوج ؟

قلت : الحب... يا حبيبتى !



قالت : متى ستكتب قصة حياتى ؟

ـ عندما أمارس حياتى !!

قالت : اكتبها الآن إذن...

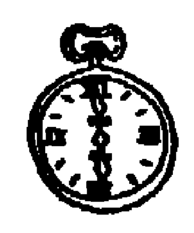
ـ كيف ؟ وأنا لا أعيش ولكنى أموت...

قالت : أنت تموت ؟!

ـ نعم. لأنى لا أزال أحبك !

فصاحت غاضبة : هل تعتقد أن حبك لى موت ؟

وقلت لها : أهدئى... لا ترفعى صوتك حتى لا يسمعك الموت... فيغضب منى !

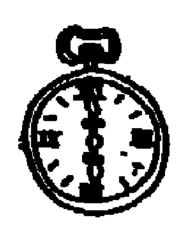


أصبحت ساعتى مثلى... أصابتها الشيخوخة، فقدت توازنها، تريد أن تسير فتقف، تحولت دقاتها المنتظمة إلى سعال متقطع!.

كل يوم يبذل الساعاتى معها.. ما يبذله الطبيب معى. ولكن الزمن أقوى من الساعاتى، ومن الطبيب!

حاولت التخلص منها، فماذا أصنع بها؟

... آه من يوم أرى فيه الناس يحاولون التخلص منى.. لأنى أصبحت مثل ساعتى!!

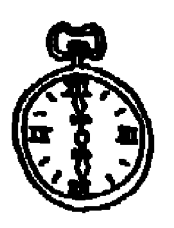


إنه يصغرنى بعشرين عامًا. ولما رأيته خيّل لى أنه يكبرنى بعشر سنوات!! سألته عما به... فقال: زواج وخمسة أولاد!

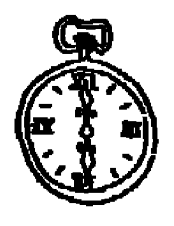
قلت: أنت بطل.

قال : الزواج ليس بطولة... الزواج عبودية.

قلت : الإنسان الذى اخترع الزواج والسجون... ليس له أن يبكى على الحرية!!



- إن نظراتك الغامضة تكاد تأكلنى... كُلينى إذا شئت... ولكنى أكره أن تلتهمنى العيون، وأحب أن تلتهمنى الشفاه!!



سألتنى : ماذا بعد الحياة؟

- وماذا قبل الحياة؟

قالت : عدم..

- مستحيل... فالعدم لا يُؤدى إلى الوجود.

قالت : ماذا قبل الوجود إذن؟

ـ وجود ينتهى إلى وجود !!

قالت : بقى سؤالى كما هو... ماذا بعد الحياة ؟

ـ حياة...

قالت : الحياة كشمس تشرق لتغيب... وتغيب لتشرق !

قالت : ألا يساورك الخوف من الموت ؟

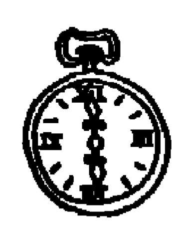
ـ ما دمت حيًا فلن أحس الموت حتى أخافه... وإذا مت... فإنى سأصبح عاجزًا عن الشعور بالخوف أو الشعور بالطمأنينة !

قالت : لقد أرحتنى من هذه المشكلة...

ـ أية مشكلة ؟

قالت : مشكلة الموت...

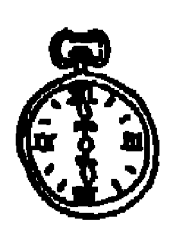
ـ الموت ليس مشكلة... الحياة هى المشكلة !!



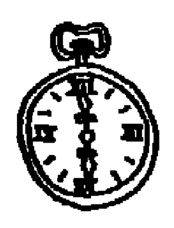
لعن الله الأيام، ماذا صنعت بها ؟! الملامح الناضرة المشدودة.. كيف ذبلت وترهلت ؟ العينان المنطلقتان بنظرات

تنفث السحر بسخاء وتوجع القلوب بقسوة... كيف تحولتا إلى محجرين يتوكأان على نظارة سميكة تحجب الضوء والنظر... القوام الممشوق... كيف أصبح حزمة من حطب يغطيها فستان ؟!

كنت أجرى وراءها... فأصبحت أجرى منها... كنت أخشى غدرها... فصرت أخشى وفاءها!

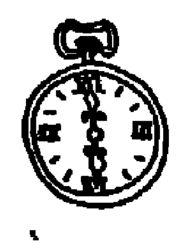


آه من الكذب... ما أشد جاذبيته فى دمعتك... وفى ابتسامتك!



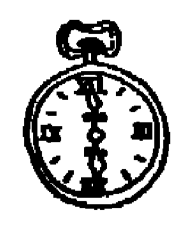
كل ما فى الحياة يسرع الخطى... يجرى، يعدو، يقفز.. الطائرات، السيارات، الأحداث، الصوت، الضوء، الأعمار!

وأنـــا أحـــب السرعــــة فى أى شيء... إلا فى شيء واحد... عمرى!



قلبى لا يعرف إلا الحب... ينفعل بـالخير... فيحبـه، وينفعل بالشر فلا يكرهه... ولكن يجب أن يكرهه!

ليتها تعلم أنى لا أطيـق أن أراهـا حـزينة، ولا أطيـق أن تدارى حزنها؟ كانت تدارى ألمهـا وتحـاول أن تبتســم... إن الابتسامات لا ترتسم على فمها، ولـكن تنحـدر مـن شــفتيها كالدموع!



قالت: إلى متى تشكو منى؟

ـ أنا؟

قالت : نعم.. فما أكثر ما تردد كلمات العذاب.

ـ وهل تعتقدين أنك ألهمتنى عذابى؟

قالت : من هى إذن التى عذبتك؟

ـ هذا سر لا أبوح به لأحد...

قالت : ألم أكن موضع سرك؟

ـ وكنت سرى المقدس!

قالت : والآن؟

ـ ليس عندى سر أبوح به، ولا سر أقدسه!

قالت : كذاب... فمازلت تكتب عن حبى لك. أليس هذا صحيحًا؟

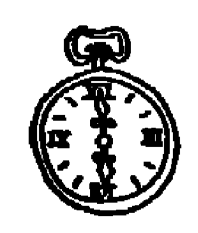
ـ صحيح؟

قالت : لقد اعترفت بأنك تحبنى...

ـ كنت أحبك يومًا!

قالت : ولكن ما تكتبه حتى اليوم... تنطلق منه صيحات الحب، وأكاد أسمع ألفاظه وهى تصرخ!

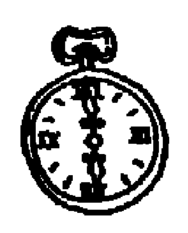
ـ إن ما تقرأينه ليس تعبيرًا عن حبى لك... إنه ليس أكثر من مهاترات عاطفية!



اتركى لى يومى... لاتدعى طيفك يقتحم أحلامى ويوقظنى ويخدعنى بأنك بين ذراعى، فإذا صحوت... لم أجد إلا ذراعى!

اتركى لى يقظتى... لا تملئيها بشبحك الذى ينبض باللعنة والجاذبية... ماذا تبغين منىّ؟ هل تريدين أن نعود إلى حبنا القديم؟ ولكن كيف أعود إلى ماض قد اندثر؟! هل تريدين أن نبدأ حبًا جديدًا؟... ولكن كيف لى أن أبدأ بعد ما انتهيت... ولم يعد لى قلب يقوى على أن يحب، ولا على أن يكره؟!

أريحينى من ذاكرتى... أريحينى من ذاكرتك!



أصبح هذا الشارع مثارًا لذكريات تلسع نبض قلبى!

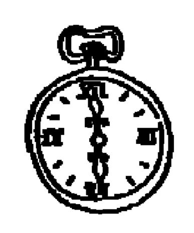
في هذا الشارع كم قضيت ليالى بلغ فيها شبابى قمة النشوة !!

وقد ظلت القمة كما هى، ولم يبق لى من الشباب ما أصعد به قمة، أو أمشي به خطوة!

وفى هذا الشارع، عرفت مئات من الأصدقاء... كانوا يسكنون أبنيته الجميلة التى تطل على البحر، وقد ذهبوا جميعًا إلى العالم الآخر وتركونى وحدى. وكلما مررت بعمارة... تذكرت صديقًا كان يسكنها فتنقبض نفسى وأقرأ على روحه الفاتحة.

هذا الشارع أصبح بالنسبة لى ساحة مقدسة، تشير أبنيتها إلى الأصدقاء الذين كانوا يملأونها... ويملأون حياتى، فرحلوا عنها وعن حياتى !!

ما بال هذه الأبنية قد استحالت إلى أضرحة كلما رأيتها احسست أن مشاعرى تصلى... وتسجد... وتركع!



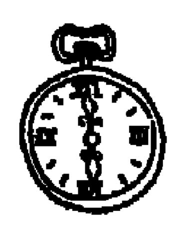
آه من فمها...

الشفتان المليئتان الملتهبتان الحمراوان كقرص الشمس!!

الأسنان الناصعة البياض كالثلج!!

الابتسامة التى تحاول أن تظهر ولا تظهر!!

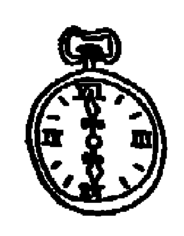
هذا الفم يقول لى وهو صامت: احذرنى.. سأخدعك! فأكذبه ولا أحذره.. ثم تمضى الأيام... فإذا بى أحبه وأصدقه، وآمن إليه!!!



يا قلبى...

أيها المغامر العجوز!!

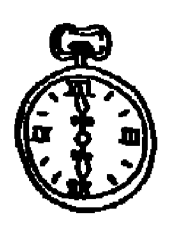
إننى فى الخامسة والخمسين، وهى فى العشرين... إذا لم تخجل منى... فاخجل منها!



المتحف... هو المكان الطبيعى للذين يتمنون الشباب بلا جدوى!

وأنا لا أتمنى شبابى وحده... ولكنى أتمنى طفولتى أيضًا!

فأين يا ترى مكانى؟!



قالت - أنا لك...

- لعلك تجاملينى!

قالت - أنت لا تعرفنى إذن!

- هل تبادلييننى الحب؟

قالت - طبعًا!

- اقتربى منى!

قالت - أنا مستريحة هنا...

- اسمحى لى أن أقترب منك.

قالت ـ لماذا ؟!

ـ أريد قبلة !

قالت ـ مستحيل !

ـ قبلة أطبعها على جبينك . . .

ـ مستحيل !!

ـ على شعرك . . .

ـ مستحيل !!

على ظهر يدك . . .

ـ مستحيل !!

ـ وتحبينني ؟

ـ نعم . . .

ـ وأنت لى ؟!

ـ نعم !

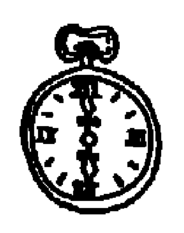
ـ بماذا تصفينني إذا صدقتُ ما تقولين ؟!

ـ أصفك بالطهر والنقاء

ـ لاتتواضعي . . . ستصفينني بالطيبة والغباء . . .

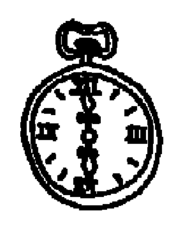
ـ وهل تكره أن تكون طيبًا ؟

ـ أكره أن أكون غبيًا !!



يستطيع الزمن أن يأخذ منى... كل شيء... إلا قدرتى على أن أتمنى!!

وعندما تضيق بى سبل الحيـاة فـإنى قبـل أن أستسلم لليأس... سأتمنى... أتمنى أن أيأس!

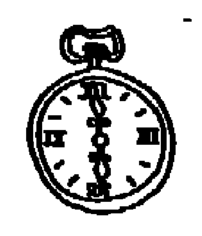


أيتها الأمواج... أضربى جسدى... اصفعى وجهى!!

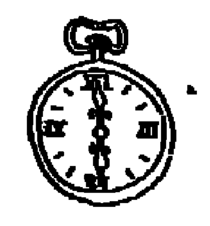
خذينى بين أحضانك... ولكن لا تخنقينى...

لو لم تكونى ماء لكنت غانية!!

فما أشبهك بالغوانى، فيك ما فيهن من جمال، وغـدر... وجاذبية!



إن قلبي لا يطيق أن يتسكع فى ضلوعه بلا عمل !!
ولذلك فهو حريص على ألا يعتزل الحب... حتى لا يتعرض للبطالة !



لم أستطع أن أودعك !!
خشيت من عينى أن تبكى..
خشيت من ذراعىّ أن تطوقاك... بكل ما فى صدرى من حرمان وحنين... خشيت من فمى أن ينهال عليك بالقبلات !!
خفت من الفراق...
فهربت من الفراق...
بالفراق !

